المكتبة التأصيلية

٢١

التعليق على

الدرة المضية

في عقد أهل الفرقة المرضية

للإمام محمد بن أحمد بن سالم السفاريني

المتوفى سنة (١١٨٨هـ)

لفضيلة الشيخ

عبد الله بن محمد الغنيمان

حفظه الله تعالى

التعليق على

الدرة المضية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

ردمك : ٤-١٨٨٤-٠-٩٩٢١-٩٧٨

مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولـة الكـويت

المـوزع الرسمـي
ركائز للنشر والتوزيع
دار ركائز للنشر والتوزيع
rakaezkw.com rakaez.kw@gmail.com
@dar_rakaezkw t.me/rakaezkw
+٩٦٥ ٥٠٦٧٤٥٣٣

مقدمة الناشر

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

فيسرُّ مشروع العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمي بدولة الكويت أن يقدم لطلبة العلم الكرام **الإصدار الحادي والعشرين** من «المكتبة التأصيلية»، وهو بعنوان «التعليق على الدُّرة المُضيَّة في عَقد أهل الفِرقة المرضيَّة» للإمام محمد بن أحمد بن سالم السفاريني النابلسي الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (١١١٤هـ).

حيث قام فضيلةُ الشيخ **عبد الله بن محمد الغنيمان** ـ حفظه الله ـ بالتعليق عليها وتوضيح معانيها، وذلك من ضمن دروسٍ عُقِدتْ في مسجد فهد الزبن بمنطقة «بيان» بعد صلاة الفجر، وذلك بتاريخ ١١ ـ ١٧ من شهر ذي القعدة سنة ١٤٣٥هـ، الموافق ٥ ـ ١٢/ ٩/ ٢٠١٤م.

وكان المنهجُ العامُّ المتبعُ في إخراج هذا الكتاب ما يلي:

١ ـ تفريغ الدروس الصوتية إلى مكتوبة، ثم مقابلة النصِّ المكتوب على المسموع مرةً أخرى.

٢ ـ صياغة النصِّ وتهذيبه، وربطُ المتن بالشرح مع تمييز المتن بلون مختلف.

٣ ـ خدمةُ النصِّ، وذلك بعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها في

المصحف، والتخريج المختصر للأحاديث المرفوعة، وبيان غريب الألفاظ، وتوثيق الأقوال وعزوها إلى مصادرها.

٤ ـ تدقيق النصِّ من الناحية اللغوية والإملائية، وضبطُ علامات الترقيم، وضبط ما يُشكل من الألفاظ.

وبعد ذلك تكرَّم الشيخ ـ حفظه الله ـ بمراجعة الكتاب، وتعديل ما يلزم تعديله، وإضافة ما يحتاج إلى إضافة وتوضيح، ثم أذِن بطباعته، فجزاه الله خيراً، وشكر سعيه، وبارك في عمُره ووقته، وأجزل له المثوبة.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يجعلَ هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ونشكر كلَّ مَن أسهم في إخراج هذا العمل، وأن يَعمَّ نفعه للإسلام والمسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وبعد سبق أن ألقيت دروساً في دورة الشيخ محمد
بن عثيمين رحمه الله وقد أذنت للقائمين عليها
في طباعة تلك الدروس وفوضت إليهم التصرف
فيها والله ولي الجميع بالتوفيق وصلى الله وسلم على
نبينا. قاله وكتبه عبد الله بن محمد الغنيمان في ٢/١٢/١٤٢٨هـ

نظم الدرة المضية
في عقد أهل الفرقة المرضية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الحمد لله القديم الباقي ... مُسبِّب الأسباب والأرزاق
حيٌّ عليمٌ قادرٌ موجودُ ... قامت به الأشياء والوجود
دلّتْ على وجوده الحوادثُ ... سبحانه فهو الحكيم الوارثُ
ثم الصلاة والسلام سرمدا ... على النبي المصطفى كنزِ الهدى
وآله وصحبه الأبرار ... معادنِ التقوى مع الأسرار
وبعد فاعلم أن كلَّ العلم ... كالفرع للتوحيد فاسمعْ نظمي
لأنه العلم الذي لا ينبغي ... لعاقل لفهمه لم يبتغِ
فيعلمُ الواجبَ والمحالا ... كجائزٍ في حقه تعالى
وصار من عادة أهل العلم ... أن يعتنوا بسبر ذا بالنظم
لأنه يسهل للحفظ كما ... يروق للسمع ويشفي مِن ظما
فمن هنا نظمت لي عقيده ... أرجوزةً وجيزةً مفيده
نظمتها في سِلكها مُقدِّمه ... وستُّ أبوابٍ كذاك خاتمه
وسَمْتُها بالدرة المُضيَّة ... في عقد أهل الفِرقة المرضية
على اعتقاد ذي السداد الحنبلي ... إمامِ أهل الحق ذي القدر العلي
حبرِ الَملا فردِ العُلى الرباني ... ربِّ الحجى ماحِي الدجى الشيباني

فـــإنـــه إمـــام أهـــل الأثـــرِ فـمَـنْ نـحـا مَـنـحـاهُ فـهـو الأثـري
سقى ضريحاً حلَّه صوبُ الرضا والعفو والغفران ما نجمٌ أضا
وحـــلَّـــه وســـائـــرَ الأئـــمـــةِ مـنـازل الـرضـوان أعـلـى الـجـنـةِ

مقدمة

في ترجيح مذهب السلف على غيره من سائر المذاهب

اعـلـم هُـديـتَ أنـه جـاء الـخـبـرْ عن النبي المُقتفى خيرِ البشرْ
بـأن ذي الأمـةَ سـوف تـفـتـرقْ بضعاً وسبعين اعتقاداً والمُحِقْ
ما كان في نهج النبيِّ المصطفى وصـحـبـه مـن غـيـرِ زيـغ وجـفـا
وليس هذا النصُّ جزماً يعتبر فـي فـرقـةٍ إلا عـلـى أهـلِ الأثـر

قول أهل السنة في النصوص

فـأثـبَـتـوا الـنـصـوصَ بـالـتـنـزيـه مـن غـيـر تـعـطـيـل ولا تـشـبـيـه
فـكـلُّ مـا جـاء مـن الآيـات أو صحَّ في الأخبار عن ثقاتِ
مـن الأحـاديـث نُـمِـرُّه كـمـا قد جاء فاسمعْ من نظامي واعلَما
ولا تـــردُّ ذاك بـــالـــعـــقـــول لـقـولِ مُـفْـتَـرٍ بـه جـهـول
فـعِـقْـدُنـا الإثـبـاتُ يـا خـلـيـلـي مـن غـيـر تـعـطـيلٍ ولا تـمـثـيلِ
فـكـلُّ مَـن أول فـي الـصـفـاتِ كـذاتـه مـن غـيـر مـا إثـبـاتِ
فـقـد تـعـدّى واسـتـطـال واجـتـرى وخاض في بحر الهلاك وافترى
ألـم ترَ اختلافَ أصحابِ النظرْ فـيـه وحـسـنَ مـا نـحـاه ذو الأثـرْ
فـإنـهـم قـد اقـتـدوا بـالـمـصـطـفـى وصـحـبِـه فـاقـنـعْ بـهـذا وكـفـى

الباب الأول

في معرفة الله تعالى وما يتعلق بذلك من تعداد الصفات التي يثبتها المتكلمة كالسلف وأسمائه تعالى وكلامه وغير ذلك

أول واجـبٍ عـلـى الـعـبـيـد مـعـرفـةُ الإلـه بـالـتـسـديـد

بأنه واحدٌ لا نظيرَ ... له ولا شِبْهَ ولا وزيرَ
صفاتُه كذاتِه قديمه ... أسماؤه ثابتةٌ عظيمه
لكنها في الحق توقيفيه ... لنا بذا أدلةٌ وفِيَّه
له الحياة والكلام والبصرْ ... سمعٌ إرادةٌ وعلمٌ واقتدرْ
بقدرةٍ تعلقتْ بممكنِ ... كذا إرادةُ فَعِ واسْتَبِنِ
والعلم والكلام قد تعلقا ... بكل شيء يا خليلي مطلقا
وسمعه سبحانه كالبصرِ ... بكل مسموع وكلِّ مبصرِ

فصل

في مبحث القرآن العظيم والكلام المُنزَّل القديم

وإن ما قد جاء معْ جبريل ... من محكم القرآن والتنزيل
كلامه سبحانه قديمُ ... أعيا الورى بالنصِّ يا عليمُ
وليس في طوق الورى من أصله ... أن يستطيعوا سورةً من مثله

فصل

في ذكر الصفات التي يثبتها لله تعالى أئمة السلف

وليس ربنا بجوهر ولا ... عَرَضٍ ولا جسم تعالى ذو العلى
سبحانه قد استوى كما وردْ ... من غير كيف قد تعالى أن يُحَدْ
فلا يحيط علمنا بذاته ... كذاك لا ينفكُّ عن صفاته
فكل ما قد جاء في الدليل ... فثابتٌ من غيرِ ما تمثيل
من رحمةٍ ونحوها كوجهه ... ويدِهِ وكلِّ ما من نهجِهِ
وعينُه وصفةُ النزول ... وخلقُه فاحذر من النزول
فسائرُ الصفاتِ والأفعال ... قديمةٌ لله ذي الجلال
لكنْ بلا كيفٍ ولا تمثيلِ ... رغماً لأهل الزيغ والتعطيل
فمرَّها كما أتتْ في الذكرِ ... من غير تأويل وغير فِكرِ
ويستحيل الجهل والعجز كما ... قد استحال الموت حقّاً والعمى

فكل نقصٍ قد تعالى الله عنه فيا بشرى لمن والاه

فصل
في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلد في العقائد وعدمها وفي جوازه وعدمه

وكل ما يُطلب فيه الجزمُ فمَنْعُ تقليدٍ بذاك حَتمُ
لأنه لا يُكتفى بالظنِّ لذي الحِجى في قول أهل الفن
وقيل: يكفي الجزمُ إجماعاً بما يُطلب فيه عند بعض العلما
فالجازمون من عوامِّ البشرِ فمسلمون عند أهل الأثرِ

الباب الثاني
في الأفعال المخلوقة

وسائر الأشياء غيرُ الذات وغيرُ ما الأسماء والصفات
مخلوقةٌ لربنا من العدم وضلَّ من أثنى عليها بالقِدم
وربنا يخلق باختيارِ من غير حاجة ولا اضطرارِ
لكنه لا يخلق الخلق سدى كما أتى في النص فاتْبعِ الهدى
أفعالنا مخلوقة لله لكنها كسبٌ لنا يا لاهي
وكل ما يفعلُه العباد من طاعة أو ضدها مراد
لربنا من غير ما اضطرار منه لنا فافهم ولا تُمَار
وجازَ للمولى يعذبُ الورى من غير ما ذنبٍ ولا جرمٍ جرى
فكل ما منه تعالى يَجْمُل لأنه عن فعله لا يُسأل
فإن يُثِبْ فإنه من فضله وإن يعذب فبمحضِ عدله
فلم يجب عليه فعلُ الأصلح ولا الصلاح ويحَ مَنْ لم يُفْلِحِ
فكل من شاء هداه يهتدي وإن يُرِد ضلالَ عبد يعتدي

فصل

في الكلام على الرزق

والرزق ما ينفع من حلال ... أو ضدِه فَحُلْ عن المحال
لأنه رازقُ كلِّ الخلق ... وليس مخلوقٌ بغير رزق
ومن يمت بقَتلهِ من البشرْ ... أو غيره فبالقضاء والقدر
ولم يَفُتْ من رزقه ولا الأجل ... شيءٌ فدَعْ أهلَ الضلال والخطل

الباب الثالث

في الأحكام والكلام على الإيمان ومتعلقات ذلك

وواجب على العباد طُرا ... أن يعبدوه طاعةً وبرّاً
ويفعلوا الفعل الذي به أَمرْ ... حتماً ويتركوا الذي عنه زَجَر

فصل

في الكلام على القضاء والقدر غير ما تقدم

وكل ما قَدَّرَ أو قضاه ... فواقعٌ حتما كما قضاه
وليس واجباً على العبد الرضا ... بكل مَقْضِيٍّ ولكن بالقضا
لأنه مِنْ فعله تعالى ... وذاك من فعل الذي تقالى

فصل

في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها

ويَفْسُق المذنبُ بالكبيرةِ ... كذا إذا أصر بالصغيرةِ
لا يخرج المرء من الإيمان ... بموبقات الذنب والعصيان
وواجب عليه أن يتوبا ... مِنْ كلِّ ما جرَّ عليه حُوبا
ويَقبل المولى بمحض الفضل ... من غير عبد كافر مُنْفَصْلِ
ما لم يتب من كفره بضده ... فيرتجعْ عن شركه وصَدِّه
ومن يمت ولم يتُبْ من الخطا ... فأمره مُفَوَّض لذي العطا

فإن يشأْ يعفُ وإن شاء انتقم وإن يشأ أعطى وأجزل النعم

فصل
في ذكر من قيل بعدم قبول إسلامه
من طوائف أهل العناد والزندقة والإلحاد

وقيل في الدروز والزنادقه وسائر الطوائف المنافقه
وكل داع لابتداعٍ يُقتل كمن تكررْ نكثُه لا يُقبل
لأنه لم يُبْدِ مِنْ إيمانه إلا الذي أذاع من لسانه
كملحدٍ وساحرٍ وساحِرَه وهم على نياتهم في الآخره
قلت: وإن دلَّتْ دلائلُ الهدى كما جرى للعيلبونيِّ اهتدى
فإنه أذاع من أسرارهم ما كان فيه الهَتْك عن أستارهم
وكان للدين القويم ناصراً فصار منا باطناً وظاهراً
فكل زنديق وكل مارقِ وجاحدٍ وملحدٍ منافق
إذا استبان نصحه للدين فإنه يُقبل عن يقين

فصل
في الكلام على الإيمان واختلاف الناس فيه
وتحقيق مذهب السلف في ذلك

إيماننا قول وقصد وعملْ تزيده التقوى وينقص بالزلل
ونحن في إيماننا نستثني من غير شكٍ فاستمع واسْتَبْنِ
نتابع الأخيار من أهل الأثر ونقتفي الآثار لا أهلَ الأشر
ولا تقل: إيماننا مخلوق ولا قديمُ هكذا مطلوق
فإنه يشملُ للصلاة ونحوها من سائر الطاعات
ففعلنا نحو الركوع محدثُ وكل قرآن قديمٌ فابحثوا
ووكَّل الله من الكرام اثنين حافظين للأنام
فيكتبان كل أفعالِ الورى كما أتى في النص من غير امترا

الباب الرابع

في ذكر بعض السمعيات

من ذكر البرزخ وأشراط الساعة والحشر والنشور

وكل ما صح من الأخبار ... أو جاء في التنزيل والآثار
من فتنة البرزخ والقبور ... وما أتى في ذا منَ الأمور

فصل

في ذكر الروح والكلام عليها

وإن أرواح الورى لم تُعدمِ ... مع كونها مخلوقة فاستفهم
فكل ما عن سيد الخلق ورد ... من أمرِ هذا الباب حقٌ لا يُرد

فصل

في أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ومجيئها

وما أتى في النص من أشراط ... فكله حق بلا شِطاط
منها الإمام الخاتمُ الفصيح ... محمد المهدي والمسيح
وأنه يَقتل للدجال ... بباب لُدٍ خلِّ عنْ جدال
وأمرُ يأجوجَ ومأجوجَ أثْبِتِ ... فإنه حق كهدم الكعبة
وإن منها آيةَ الدخان ... وأنه يذهبُ بالقرآن
طلوع شمس الأفْق من دَبور ... كذات أجيادٍ على المشهور
وآخر الآيات حشرُ النار ... كما أتى في محكم الأخبار
فكلها صحت بها الأخبار ... وسَطَّرتْ آثارَها الاخيارُ

فصل

في أمر المعاد

واجزم بأمر البعث والنشور ... والحشر جزماً بعد نفخِ الصور
كذا وقوف الخلق للحساب ... والصُّحْف والميزانُ للثواب

كذا الصراط ثم حوضُ المصطفى ... فيا هَنا لمن به نال الشِفا
عنه يُذادُ المُفتري كما وَرَدْ ... ومن نحا سُبْلَ السلامهْ لم يُرَدْ
فكن مطيعاً واقْفُ أهلَ الطاعة ... في الحوض والكوثر والشفاعة
فإنها ثابتةٌ للمصطفى ... كغيره من كل أرباب الوفا
مِن عالم كالرسْل والأبرار ... سوى التي خُصَّتْ بذي الأنوار

فصل
في الكلام عن الجنة والنار

وكل إنسان وكل جِنَّةِ ... في دارِ نارٍ أو نعيمِ جنةِ
هما مصيرُ الخلق من كل الورى ... فالنار دار من تعدَّى وافترى
ومن عصى بذنبه لم يَخْلُدِ ... وإن دخلها يا بوارَ المعتدي
وجنةُ النعيم للأبرار ... مصونة عن سائر الكفار
واجزم بأن النار كالجنةِ في ... وجودها وأنها لم تتلَفِ
فنسأل الله النعيمَ والنظر ... لربنا من غير ما شَينٍ غَبرْ
فإنه يُنظر بالأبصار ... كما أتى في النص والأخبار
لأنه سبحانه لم يُحْجَبِ ... إلا عن الكافرِ والمكَذِّب

الباب الخامس
في ذكر النبوة وذكر محمد ﷺ وبعض الأنبياء
وفضل أصحابه وأمته ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين

ومن عظيم منة السلام ... ولطفه بسائر الأنام
أن أرشد الخلق إلى الوصولِ ... مبيناً للحق بالرسول
وشرط من أُكرم بالنبوةِ ... حريةٌ ذكورةٌ كقوةِ
ولا تنال رتبة النبوةِ ... بالكسب والتهذيب والفتوةِ

لكنها فضلٌ من المولى الأَجَلْ ... لمن يشا من خلقه إلى الأجلْ
ولم تزل فيما مضى الأنباءُ ... من فضله تأتي لمن يشاء
حتى أتى بالخاتم الذي ختم ... به وأعلانا على كل الأمم

فصل
في بعض خصائص النبي ﷺ

وخصَّه بذاك كالمَقام ... وبعْثِهِ لسائر الأنام
ومعجزُ القرآنِ والمعراج ... حقّاً بلا مَيْنٍ ولا اعوجاج
فكم حباه ربه وفَضَّلَه ... وخصَّه سبحانه وخوَّله

فصل
في التنبيه على بعض معجزاته ﷺ

ومعجزات خاتم الأنبياء ... كثيرةٌ تَجِلُّ عن إحصائي
منها كلام الله مُعجزُ الورى ... كذا انشقاق البدر من غير امترا

فصل
في ذكر فضيلة نبينا وأولي العزم وغيرهم من النبيين والمرسلين

وأفضل العالم من غير امترا ... نبينا المبعوث في أمِّ القرى
وبعده الأفضل أهلُ العزم ... فالرُّسْل ثم الأنبيا بالجزم

فصل
فيما يجب للأنبياء عليهم السلام وما يجوز عليهم وما يستحيل في حقهم

وإن كل واحد منهم سَلِم ... من كل ما نَقْصٍ ومن كُفْرٍ عصم
كذاك من إفكٍ ومن خيانه ... لوصفهم بالصدق والأمانه
وجائز في حق كل الرُّسْلِ ... النومُ والنكاح مثلُ الأَكْل

فصل
في ذكر الصحابة الكرام ﷺ

وليس في الأمة بالتحقيق ... في الفضل والمعروف كالصِّدّيق
وبعده الفاروق من غير افترا ... وبعده عثمان فاتركِ المرا
وبعدُ فالفضل حقيقاً فاسمعِ ... نظامي هذا للبَطين الأنْزَع
مُجَدِّلِ الأبطال ماضي العزمِ ... مُفرِّج الأوجال وافي الحزم
وافي الندى مُبدي الهدى مردي العِدا ... مُجْلي الصدى يا ويلَ مَن فيه اعتدى
فحبه كحبهم حتماً وجب ... ومن تعدى أو قلى فقد كذب
وبعد فالأفضل باقي العشَره ... فأهل بدرٍ ثم أهل الشجره
وقيل: أهل أحْدٍ المُقدَّمه ... والأولُ أولى للنصوص المُحْكَمه
وعائشهْ في العلم معْ خديجه ... في السَّبق فافهم نكتَةَ النتيجه

فصل
في ذكر الصحابة الكرام بطريق الإجمال
وبيان مزاياهم على غيرهم

وليس في الأمة كالصحابة ... في الفضل والمعروف والإصابة
فإنهم قد شاهدوا المختارا ... وعاينوا الأسرار والأنوارا
وجاهدوا في الله حتى بانا ... دينُ الهدى وقد سما الأديانَ
وقد أتى في محكم التنزيلِ ... من فضلهم ما يشفى من غليل
وفي الأحاديث وفي الآثار ... وفي كلام القوم والأشعار
ما قد ربا مِنْ أن يحيطَ نظمي ... عن بعضه فاقنعْ وخُذ عن علم
واحذرْ مِنَ الخوض الذي قد يُزري ... بفضلهم مما جرى لو تدري
فإنه عن اجتهاد قد صدرْ ... فاسلم أذلَّ اللهُ من لهم هجر
وبعدَهمْ فالتابعون أحرى ... بالفضل ثم تابعوهم طُرَّا

فصل

في ذكر كرامات الأولياء وإثباتها

وكل خارق أتى عن صالحِ ... من تابعٍ لشرعنا وناصح
فإنها من الكرامات التي ... بها نقول فاقْفُ للأدلةِ
ومَن نفاها مِن ذوي الضَّلالِ ... فقد أتى في ذاك بالمحال
فإنها شهيرةٌ ولم تَزلْ ... في كل عصرٍ يا شقا أهلِ الزللْ

فصل

في المفاضلة بين البشر والملائكة

وعندنا تفضيلُ أعيانِ البشر ... على ملاك ربِّنا كما اشتهر
قال: ومن قال سوى هذا افترى ... وقد تعدَّى في المقال واجترى

الباب السادس

في ذكر الإمامة ومتعلقاتها

ولا غنى لأمة الإسلامِ ... في كل عصر كان عنْ إمامِ
يَذُبُّ عنها كل ذي جحودِ ... ويعتني بالغزو والحدود
وفعلِ معروفٍ وتركِ نُكْرِ ... ونَصرِ مظلوم وقمعِ كفرِ
وأخذِ مال الفيءِ والخراج ... ونحوِه والصرفِ في منهاج
ونصبُه بالنصِّ والإجماع ... وقهرِه فَحُلْ عنِ الخداعِ
وشرطُه الإسلامُ والحرّيه ... عدالةٌ سمعٌ مع الدَّرِيَّه
وأن يكون من قريشٍ عالماً ... مُكلَّفاً ذا خبرةٍ وحاكما
وكنْ مطيعاً أمرَهُ فيما أمرْ ... ما لم يكن بمنكرٍ فيُحْتَذرْ

فصل

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

واعلم بأن الأمرَ والنَّهي معا ... فرضا كفايةٍ على مَنْ قد وعى

وإن يكن ذا واحداً تَعَيَّنا ... عليه لكن شرطُهُ أنْ يأمنا
فاصبر وزُلْ باليد واللسانِ ... لمنكرٍ واحذرْ من النقصانِ
ومن نهى عما له قد ارتكبْ ... فقد أتى بما به يُقضى العجبْ
فلو بدا بنفسه فَذَادَهَا ... عن غَيِّهَا لكان قد أفادَهَا

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

مدارُك العلوم في العيانِ ... محصورةٌ في الحد والبرهان
وقال قوم عند أصحاب النظرْ: ... حسٌّ وإخبارٌ صحيحٌ والنظرْ
فالحد وهو أصلُ كلِّ علم ... وصفٌ محيطٌ كاشفٌ فافْتَهِم
وشرطُه طردٌ وعكسٌ وهو إنْ ... أنبا عن الذوات فالتَّامَّ اسْتَبِنْ
وإن يكن بالجنس ثم الخاصّه ... فذاك رسمٌ فافهم المحاصَّه
وكل معلوم بحس وحِجى ... فنُكْرُه جهلٌ قبيحٌ في الهِجا
فإن يَقُمْ بنفسه فجوهرُ ... أو لا فذاكَ عرضٌ مُفْتَقَرُ
والجسم ما أُلِّفَ من جزأينِ ... فصاعداً فاترك حديث المَينِ
ومستحيلُ الذات غيرُ ممكنِ ... وضدُّه ما جاز فاسمع زَكَني
والضدُّ والخلافُ والنقيضُ ... والمثلُ والغيْرانِ مُستفيضُ
وكل هذا علمه محققْ ... فلم نُطِلْ به ولم نُنَمِّقْ
والحمد لله على التوفيقِ ... لِمنهجِ الحق على التحقيق
مُسَلِّماً لمُقْتَضى الحديثِ ... والنصِّ في القديم والحديثِ
لا أعتني بغيرِ قولِ السلفِ ... موافقاً أئمتي وسلفي
ولستُ في قولي ذا مقلدا ... إلا النبيَّ المصطفى مُبدِي الهدى
صلى عليه الله ما قَطْرٌ نزلْ ... وما تعانى ذِكرُه من الأزلْ
وما انجلى بهديه الدّيْجورُ ... وراقتِ الأوقات والدهورُ
وآله وصحبه أهلِ الوفا ... معادنِ التقوى وينبوع الصفا

وتـابـعٍ وتـابـعٍ لـلـتـابـعِ خيرِ الورى حقاً بنصِّ الشارعِ
ورحـمـةُ الـلـه مَعَ الـرضـوانِ والـبـرِّ والـتـكـريـم والإحـسـانِ
تُهدى مع التبجيلِ والإنعامِ مني لمثوى عصمة الإسلامِ
أئـمـةِ الـديـن هـداةِ الأمـةِ أهل التقى مِنْ سائرِ الأئمةِ
لا سيما أحمدَ والنعمانِ ومالكٍ محمدِ الصِّنوانِ
مَنْ لازمٌ لكل أرباب العملْ تقليدُ حبرٍ منهم فاسمعْ تَخَلْ
ومَنْ نحا لِسُبْلِهِمْ مِنَ الورى ما دارتِ الأفلاكُ أو نجمٌ سرى
هديةٌ مِنّي لأربابِ السلفْ مجانباً للخوض مِنْ أهلِ الخلفْ
خذها هُديت واقتفي نظامي تَفُزْ بما أمَّلتَ والسلامِ

مقدمة الشارح

نحمد الله ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحابته وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد:

فإن العلم هو أفضل ما يسعى إليه الإنسان، ولا سيما العلم الذي يعرف العبدُ به ربَّه، ويعرف كيف يعبده سبحانه؟ ويعرف كيف يتَّجه إليه؟ فأول ما يجب على الإنسان، أن يعلم أن الله مستوٍ على عرشه، عالٍ على خلقه، فيكون قلبه يقصد ربَّه من العلو دائمًا وأبدًا، عندما يدعو، وعندما يسجد.

عندما يقع له أيُّ أمر، يلتفت إليه ولا يلتف يمينًا وشمالًا كما يقول أهل الباطل: إن الله في كل مكان! فإذا كان في كل مكان، فأين نطلبه؟ من تحت؟ أم عن أيماننا أم عن شمائلنا؟! فالله سبحانه وتعالى فَطَرَ عباده على أنه في العلو، فلا تكاد تجد عاقلًا إذا حَزَبَه[1] أمر شديد إلَّا رفع رأسه إلى الله، إلى فوق، فالإنسان إذا دعا يجد من نفسه دافعًا يدفعه أن يسأل ربَّه من فوقه، لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا ولا تحته.

واعلم أن العلوم كثيرة والعمر قصير، فيجب على العبد أن يختار

---

(١) حزبه: أي أصابه واشتد عليه. لسان العرب (١/ ٣٠٩).

الشيء الذي لا بد منه ويبتدئ به، ثم يترقَّى شيئًا فشيئًا، حسب الإمكان، ثم يجب أن يُخلص النيَّةَ والقصدَ لله ﷻ؛ لأنه يطلب العلم ليعرف ربَّه ويعبده به، ويقوم بالواجب الذي أوجبه الله عليه، فالله جلَّ وعلا يقول: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، هذا أمر حتم لا بُدَّ منه؛ أن تعلم أنه لا إله إلا الله، ثم تستغفر لذنبك وتتوب إلى الله.

والنية هي الأساس في هذا، فيكون مقصودك أن تتعلَّم حتى تنجوَ من عذاب الله، والجهل هو المُرْدِي، وهو المُهلِك.

ثم لمَّا كانت العلوم كثيرة، جمعها العلماء في مختصراتٍ ومنظومات؛ حتى يَسهُل على طالب العلم تحصيلُها وحِفظُها وفَهْمُها، فرحم الله علماءنا فقد قاموا بأمور عظيمة، وأجرُهم على الله جلَّ وعلا.

ومن هذه المنظومات المنظومة التي بين أيدينا، وهي «**الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية**» للعلَّامة السفَّاريني[1]، والتي تُعرف بالعقيدة

---

(١) هو محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الشهرة والمولد، النابلسي الحنبلي، شمس الدين، أبو العون، عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق. ولد بقرية سفَّارين من قرى نابلس سنة (١١١٤ هـ) ونشأ بها وتلا القرآن العظيم، ثم رحل إلى دمشق لطلب العلم، فأخذ بها عن الأستاذ الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، وشيخ الإسلام الشمس محمد بن عبد الرحمن الغزي وغيرهما.
حصَّلَ في الزمن اليسير ما لم يحصِّلْه غيره في الزمن الكثير، ورجع إلى بلده ثم توطن نابلس واشتهر بالفضل والذكاء ودرَّس وأفتى وأفاد وألَّف تآليف عديدة؛ منها: الدراري المصنوعات في اختصار الموضوعات، وكشف اللثام شرح عمدة الأحكام، والقول العلي لشرح أثر الإمام علي، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، ولوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، شرح لمنظومته هذه في عقيدة السلف، وتحبير الوفا في سيرة المصطفى، والتحقيق في بطلان التلفيق، وفتاوى متفرقة، بعضها في كراس أو أقل.
وكانت وفاته في شوال سنة ثمان وثمانين ومائة وألف بنابلس، ودفن بتربتها الشمالية رحمه الله تعالى. انظر: سلك الدرر (٤/ ٣١)، السحب الوابلة (ص٨٣٩).

السفَّارينية، وتشتمل على مائة وبضعةَ عَشَرَ بيتًا، جمع فيها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ما جمعه من العقائد والاختلافات، ولكن ـ عفا الله عنَّا وعنه ـ شابَهَا بشيء من علم الكلام! والتخلُّص من هذا قد يكون صعبًا، ولا سيما إن كانت النشأة في بيئة كانت العلوم الكلامية فيها هي السائدة؛ حتى إنهم قالوا بأن علم التوحيد هو علم الكلام.

ولكن نقول لهم: علمُ الكلام علمٌ لا خير فيه؛ فالتوحيد يؤخذ من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، لا من الآراء ولا من العقول، فالعقل يجب أن يكون تابعًا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويجب أن يكون مسترشدًا بكتاب الله وسنة رسوله، وإلَّا كان ضالًّا ولا شكَّ.

لهذا يجب أن يكون الأصل الرجوع إلى ما قاله الله وقاله الرسول ﷺ لا سيما في الأمور الغيبية؛ لأن الأمور الغيبية لا نَصِلُ إليها ولا نعرفها إلَّا عن طريق الوحي، والله جلَّ وعلا غيبٌ لا يشاهده أحد، وليس له مثيل فيُقاس عليه، تعالى الله وتقدَّس.

وعليه؛ فالأمر ينحصر في خبره عن نفسه وعن غيره جلَّ وعلا، وهو أعلم بنفسه وأعلم بغيره، فلا يجوز للمسلم أن يَعدِل عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثم لنعلم أن التوحيد ـ كما هو معلوم وأمر مقطوع به ـ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: توحيد الربوبية، فالكفار الذين ذكرهم الله جلَّ وعلا في كتابه عند إرسال الرسل، يعلمون قطعًا أن الله هو الخالق المتصرِّف في الكون كلِّه، وأنه ليس معه خالقٌ ولا متصرف؛ هذا لا خلافَ فيه بين بني آدم، كلُّهم يُقِرُّون بهذا، وهذا يسمى توحيد الربوبية؛ لأن الربَّ هو الذي يخلق الشيء ويربيه، ويتصرَّف فيه إيجادًا وإبقاءً وقيامًا عليه؛ فهذا لا خلاف فيه، وهذا لا يُنجي الإنسانَ من عذاب الله ولا يجعله مسلمًا.

ولهذا يقول الله جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾

[البقرة: ٢١] بدأ بالخَلْق؛ لأنه الدليل على وجوب العبادة، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، هذا أمر حتم لا خلاف فيه؛ أنه هو الذي خلقنا، وهو الذي خلق كلَّ المخلوقات.

قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]؛ أي: تعلمون أن هذه الأمور المذكورة من فِعْلِ الله فقط، لا أحد يشاركه فيها، فكيف تجعلون له أندادًا في الدعاء والتعبد والتوجه وطلب دَفْعِ الضُّرِّ؟! وهذا هو الشرك الذي جعلهم حطبًا لجهنم. هذا قسم لا خلاف فيه.

القسم الثاني: وهو تبع للأول، وهو توحيد الأسماء والصفات؛ يعني يجب أن يكون الله جلَّ وعلا واحدًا فيما ذكر من أسمائه وصفاته، لا يشاركه فيها أحد، فلا شبيهَ له ولا نظيرَ في خصائصه التي يختصُّ بها، وهذا مما وقع فيه الخلاف بين المسلمين، فقد اختلفوا فيه كثيرًا، ولا يزال الخلاف قائمًا بينهم؛ فمنهم من اتبع منهج السلف، ومنهم من أرجع الأمرَ إلى العقل فقال بأن العقل هو الأصل، وهذا يقول به كثير من المتكلمين[1]، وقالوا بأن الوحي تَبَعٌ للعقل. وهذا ضلال بيِّنٌ؛ ولهذا أخطؤوا وضلُّوا، كما أخبر الرسول ﷺ كما سيأتي إن شاء الله.

القسم الثالث: وهو امتثال الأمر واجتناب النهي الذي يأتي به الرسول ﷺ، ويجب أن يكون المقصود به رب العالمين جلَّ وعلا؛ أن تمتثل طاعةً لله وخوفًا من عذابه ورجاءَ لثوابه؛ وهذا يُسمى توحيدَ العبادة، أو توحيد النية والقصد والإرادة، أو توحيد الإلهية.

والأسماء اصطلاحية لا بأسَ بها؛ لأنها كلَّها تدل على معنًى واحد،

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٢/٩)؛ الإرشاد للجويني (ص٣٥٨).

وكلُّ رسول يأتي أُمَّتَه يدعوهم أولَ ما يدعوهم إلى هذا، لا يقول لهم: انظروا في الكون، انظروا في السماء والأرض، والرياح والسحاب والمطر، والنبات، والإحياء والإماتة؛ لأن هذه الأشياء معروفة، يعرفونها كلُّهم، ولا تخفى على أحد، وإنما يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ لأنهم يعبدون الله ولكن يعبدون معه غيره، وعبادتُهم لغيره أنهم يطلبون منه التوسط بينهم وبين الله فقط، لا يقولون: إنه مشاركٌ لله جلَّ وعلا في الخلق والتدبير والتصرُّف، ولكن يقولون: نريد شفاعةَ هذا الذي ندعوه، سواءٌ كان شجرًا، أو حجرًا، أو ميتًا، أو نجمًا، أو غير ذلك من المعبودات الكثيرة.

هذه الأقسام أمر ضروري في الواقع، وأدلَّتُها من كتاب الله جلَّ وعلا ومن سيرة رسوله ﷺ ودعوته كثيرة، ولكن لم ينصَّ عليها أحدٌ من الصحابة أو التابعين؛ لكونها واضحة جلية، لأن تفسير الشيء الواضح يعتبر من العِيِّ[1].

فإذا قيل ـ مثلًا ـ: فَسِّرْ لنا الماء، بِمَ تفسر الماء؟ فهو معروف، كذلك إذا طُلب منك أن تفسر التراب، أو الهواء وما أشبه ذلك، فهي واضحة جلية.

والقسم الذي يذكره المتكلمون هو القسم الذي فيه خلاف بين المتكلمين، وهو القسم الثاني: توحيد الأسماء والصفات، أما توحيد العبادة فلا يعرِّجون عليه ولا يذكرونه؛ لذا تجد كُتُبَهم إذا قرأتها من أولها إلى آخرها لا يذكرون فيها توحيد العبادة، ولهذا وقعوا في الخلل، حتى كبارُهم، إذا سُئل أحدهم عن معنى الإله يقول: الإله هو القادر على الاختراع[2]، وهذا ليس هو معنى الإله، وإنما معنى الإله: المألوه الذي

---

(١) يقال: عيي بالأمر، أي: عجز عنه ولم يهتدِ لوجهه. المصباح المنير (٢/ ٤٤١).

(٢) انظر: أصول الدين للبغدادي (ص١٢٣)؛ لوامع البينات للرازي (ص٨٨).

تألهه القلوب حبًّا وخوفًا ورجاءً، وتتجه إليه في الطلب والعبادة، أمَّا القادر على الاختراع فهو الربُّ جلَّ وعلا.

وفي هذه المنظومة التي نظمها السفاريني ـ رحمه الله تعالى ـ جوامع من هذه الموضوعات.

التعليق على الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية

قال المصنف رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

اختلف العلماء في كتابتها أمام الشعر، فمن العلماء من يقول: لا يجوز، ولكن إذا كان الشعر في العلوم النافعة فهو داخل فيما دلَّ عليه الدليل على أنها تُكتب؛ لأن هذا الدليل فيه التأسِّي بكتاب الله جلَّ وعلا[١].

وقد اختلف العلماء في البسملة، هل هي آية من كتاب الله، أو أنها جُعلت للفصل بين السُّوَر، واتفقوا على أنها آية من سورة الفاتحة، وأنها جزء آية من سورة النمل، وأما البقية ففيه خلاف[٢].

لهذا لم يكتبوها بين سورة الأنفال والتوبة، ولما سُئل أمير المؤمنين عثمان عن ذلك قال: «إن سورة الأنفال شبيهة بسورة التوبة، ولم نسأل رسول الله ﷺ هل هي منها؟ وخشينا أن تكون جزءً منها فلم نكتب بسم الله الرحمن الرحيم بينهما»[٣].

وهذا يدل على أنها ليست آية، وإنما هي للفصل فقط بين السور، وهي من القرآن كما عرَفنا.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٩٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣١).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٨٦).

ثم الباء في «**بسم الله**» للاستعانة؛ يعني: أبدأُ مستعينًا بالله جلَّ وعلا.

و«**الله**» هو العَلَم الذي ترجع إليه الأسماء كلها، علمٌ على ذات الله جلَّ وعلا، ولا يتسمَّى به مخلوق، تعالى الله وتقدس.

و«**الرحمن**» صيغة مبالغة يعني كثير الرحمة؛ ولهذا يقولون: رحمان الدنيا والآخرة.

و«**الرحيم**» يدل على الاختصاص؛ ولهذا جاء: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولم يأتِ «بالخَلْق رحيمًا»، أو «بالناس رحيمًا»؛ فهو أخصُّ.

والأسماء الأصل أنها أُخذت من الصفات، ولا يجوز أن نشتقَّ من كل صفة اسمًا، فالأسماء والصفات حُسنى، أسماء الله كلها حُسنى، ومعنى الحسنى: التي لا يتطرق إليها نقصٌ ولا عيب، فهي كاملة، والله له الكمال المطلق.

أما الصفة: فهي المعنى الذي يقوم بالموصوف، فالاسم يدل على الذات، أي على المسمى، والصفة معنًى يقوم بالمسمى، ففرقٌ بين هذا وذا.

والأصل في أسماء الله الصفات؛ لأن الإله مأخوذ من التألُّه والعبادة، والرحمن مأخوذ من الرحمة وكذلك الرحيم، والعزيز من العِزَّة.. وهكذا، فالرحمة صفة والعزة صفة.. وهكذا.

ولا يجوز أن نأخذ من كل صفة اسمًا؛ لأن أسماء الله وصفاته توقيفية[1]، ومعنى توقيفية: أننا لا نصف الله ولا نسمِّيه إلّا بما وصف به نفسَه، أو سمى به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ؛ هذا أمر لا بد من معرفته حتى لا نقع في الخطأ.

---

(١) انظر: فائدة جليلة في قواعد الأسماء الحسنى لابن القيم (ص٢٥).

الحمد لله القديم الباقي مُسبب الأسباب والأرزاق

ثم قال: «**الحمد**» «ال» هذه للاستغراق، يعني جميع المحامد يستحقها ربُّنا، بل تجب له تعالى وتقدس، والحمد: هو الثناء بالجميل مع الحب والتعظيم[1]، لا بد أن يكون، وإذا أعدْته صار ثناء، فهو حمدٌ، وحمدُ الله واجب على العباد، فنحمد الله تعالى أن جَعَلَنا مسلمين، وهو جلَّ وعلا الذي بدأ بالنِّعم من غير استحقاق لنا، بل فضْلًا وتكرُّمًا منه.

فالحمد لله على كل حال، له الحمد في الأُولى والآخرة، وهو المحمود دائمًا ـ تعالى وتقدس ـ ولهذا افتتح الخلقَ بالحمد، وختمه بالحمد؛ فقال جلَّ وعلا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]؛ يعني مع هذه الأمور الواضحة يعدلون به غيرَه، تعالى الله وتقدس.

وقال في نهاية الخلق: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر: ٧٥]؛ قوله تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدل على أن الخلق كلَّهم قالوا: الحمد لله رب العالمين على قضائه وحُكمه وجزائه، فهو حكيم عليم يضع الأمور في مواضعها، فيحمده كلُّ من عرَف ذلك، حتى أهل النار يعلمون قطعًا أن ما هم فيه هو الذي يستحقونه؛ ولهذا يقول جلَّ وعلا: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ [الملك: ١١].

وقوله: «**القديم الباقي**» القديم: ليس من أسماء الله، ومقصوده: الذي لم يُسبَق بشيء تعالى الله وتقدس، وهذا المعنى صحيحٌ ولكن أسماء الله يجب أن تكون وردت عن ربِّنا جلَّ وعلا، أو عن رسولنا ﷺ. والقديم يكون نسبيًّا؛ فالقديم قديم بالنسبة للجديد؛ ولهذا يقول الله جلَّ وعلا في

---

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٩٣).

القمر: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] العرجون القديم: هو عذق النخلة[١]؛ لأنه لا يُترك مستطيلًا؛ بل يُلوى حتى يكون متجهًا إلى تحت فيكون أسهل لتناول الجَنَى[٢] منه، فيبقى هكذا ملتويًا، ويكون عرجونًا، فينثني، فإذا جاء بعده جديدٌ صار هذا قديمًا.

إذًا فالقديم نسبي، فلا يكون من الأسماء الحسنى؛ لأن الأسماء الحسنى لا يتطرق إليها شيء من النقص.

وكذلك الباقي: ليس من أسماء الله، مع أن الناس يسمون عبد الباقي!! ولكنه لم يأتِ في أسماء الله الحسنى. وخيرٌ من هذين الاسمين ما قاله الله جلَّ وعلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقد فسَّرَ ذلك رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم قال: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[٣]، هذا تفسير وجيز واضح، لا يجوز العدول عنه.

وقوله: «**مسبب الأسباب والأرزاق**» يعني أنه هو الخالق لكل شيء، والمخلوقات تكون بأسباب، فهو الخالق للشيء وسببِه، تعالى وتقدس، فهو مسبب الأسباب يعني خالق الأسباب مع مسبباتها، وكل شيء له سبب كما قال الله جل وعلا.

و«**الأرزاق**» جمع رزق، والرزق: هو ما يُنتفع به[٤]، وهو ينقسم إلى قسمين:

الأول: رزق عام شامل يكون للعاقل وللبهيم ولغيره، والله جل علا هو الرزاق لكل شيء ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

---

(١) لسان العرب (١٣/ ٢٨٤).
(٢) ما يُجنى من الشجر ما دام غضًا. المصباح (١/ ١١٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٧١٣).
(٤) انظر: مختار الصحاح (ص١٢١).

والدابة: هي كل ما يدبُّ على وجه الأرض، أو في البحار، أو في غيرها[١]، كلها تقتات من رزق الله جلَّ وعلا.

ولكن لا بد من السبب، الله جلَّ وعلا جعل لكل شيء سببًا، وأمر بفعل السبب، والسبب ينقسم إلى قسمين: **سبب شرعي**، ويجب أن يُعمل به .**وسبب غير شرعي**، كالسرقة، والرِّبا، والأمور التي يُكتسب بها المال والأرزاق من غير طريقه الشرعي، بل بالمحرَّم، ويكون مَن فعله آثمًا.

الثاني: ما هو أخصُّ من هذا، وهو رزق الإيمان والعمل الصالح، وهذا يمنُّ الله جلَّ وعلا به على من يشاء.

حـي عـلـيـم قـادر مـوجـود قـامـت بـه الأشـيـاء والـوجـود

قال: «**حي**» الحي من صفات الله جلَّ وعلا وأسمائه كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولكن جاء الحي ليدلَّ على الكمال، و«حي» هنا نكرة، وهو وصف.

و«**عليم**» يعني أن العلم قام به، وهو صفة له تعالى وتقدس، فعِلمه أزلي كما أن حياته أزلية، والأزل معناه الذي لا مبدأ له[٢]، والإنسان قاصر التفكير وقاصر العقل، وقاصر في كل شيء، ضعيف، لا يستطيع أن يحيط بكل شيء، ولا يستطيع أن يحيط بالقِدم الذي لا أولَ له، فعقلُه محدود؛ ولهذا يجب أن يقف ويعرف قَدْرَه، ولا يتعدَّاه، لأن من فكَّر في مثل هذا وقع في الضلال فوصف الله جل وعلا بالنقائص، تعالى الله وتقدس، فقال: إنه صار يفعل بعد أن لم يكن يفعل، فما الذي صيَّره يفعل بعد أن لم يكن يفعل؟

---

(١) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١/ ٧٧٨).

(٢) انظر: المعجم الوسيط (١/ ١٦).

هذه نتائج التفكير السيئ، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] إذا أراد شيئًا فَعَلَه، وليس لهذا حدٌّ ولا زمن.

أمَّا هذه المخلوقات التي نشاهدها؛ مثل: السماء، والأرض، وغيرها، فلها مبدأ، وكلُّ مخلوق معيَّن سُبق بالعدم ـ بلا شكٍّ ـ ولكن جنس المخلوقات في الأصل لا مبدأ لها، والله لم يزل يفعل ما يشاء، فهو قادر دائمًا، في الأزل وفي المآل وفي الحال. وكذلك عِلمُه ـ تعالى وتقدس ـ محيط بكل شيء، وليس لعلمه مبدأٌ، والصفات تقوم بالموصوف، ولا يوجد ذاتٌ مجرَّدة بلا صفة كما يتصوره المتكلِّمون.

وكذلك قدرتُه، لا حدَّ لها، ولا يجوز أن نَحُدَّ قدرته بأشياءَ مستحيلة ممتنعة كما يتصوَّرُه المتكلمون، يحدُّون هذا الشيء، يحدون القدرة، يقولون: «على ما يشاء قادر!» يعني أنه هناك أشياء لا يقدر عليها، وبعضهم ينقش في ذهنه الشيطان شبهاتٍ وأمورًا لا حقيقة لها بل هي مستحيلة ممتنعة؛ كقولهم: هل الله يقدر أن يخلق مثلَه؟! هذا أصله ممتنع لذاته، والممتنع ليس شيئًا حتى لا يقال: إنه خرج عن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

يقول السيوطي في آخر تفسير سورة المائدة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠]: «خَصَّ العقلُ من ذلك ذاتَه؛ فليس عليها بقادر»[1].

وهذا الكلام هراء، العقل خصَّ من هذه الإطلاقات ذاتَ الربِّ فليس عليها بقادر؟! يعني أنه لا يقدر أن يخلق مثلَ ذاته، هذا وسوسة، وهو مستحيل ممتنع من الأصل، فلا يجوز أن يُفكَّر فيه أحدٌ، أو أن يدخل فيه حتى لا يشك.

---

(١) انظر: تفسير الجلالَين (ص١٦١).

وقوله: «**موجود**» يعني موجد الأشياء، ولكن هل نسمي الله ربَّنا مُوجدًا؟ لا، لا نسمي ربَّنا جلَّ وعلا مُوجِدًا بل نسمِّيه الخالق كما قال ﷻ عن نفسه، ولكن هذا قد يقال: إنه من باب الخبر وليس من باب التسمية، وباب الخبر أوسعُ من باب التسمية.

قوله: «**قامت به الأشياء والوجود**» يعني أنه أقامها ولا قيامَ إلا به ـ تعالى وتقدَّس ـ فهو الذي أوجدها.

و«**الأشياء**» عامٌّ مطلَق؛ يشمل الحيَّ وغيرَ الحي. والوجود: هو كذلك، قام به ـ جل وعلا ـ فالسموات والأرض قامت بأمره ولا مُقِيمَ لها إلَّا هو تعالى وتقدس.

دلَّتْ على وجوده الحوادثُ سبحانه فهو الحكيم الوارثُ

قوله: «**الحوادث**» التي تحدث؛ مثل السحاب، والمطر، والرياح، والموت، والحياة، وما أشبَهَ ذلك كثير، وهذا حق، فالحوادث تدلُّ على الله؛ لأن الحادث لا بُدَّ أن يكون له مُحدِث، فلا تجد مثلًا صنعةً بلا صانع، هذا مستحيل.

لو قيل لك: إن سيارة خرجت من الجبل!! كيف تخرج من الجبل؟! السيارة لا بد لها من مفكِّر وصانع يصنعها؛ ولهذا يقول ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥] فكِلَا الأمرين باطل؛ ما خُلِقوا من غير خالق، ولا هم الخالقون، ما خَلَقوا أنفسهم بل لهم خالق ﷻ خَلَقَهم.

وكثيرًا ما يستدل ربُّنا ـ جلَّ وعلا ـ على وجوب عبادته بالخلق ولا سيَّما خَلْقِ السموات والأرض؛ لأنها مُشاهَدَة، وهي أكبر المخلوقات؛ ولهذا يقول في المعبودات: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟﴾ [فاطر:٤٠]؛ يعني هل لهم مخلوقات تدعوكم إلى أن تدعوهم وتعبدونهم؟ ليس لهم شيء أصلًا بل هم ضعفاء، يعبدون ما لا يخلق شيئًا وهم يُخلَقون؟!

فالخلق من أدلة وجوب عبادةِ الله وتوحيده، والأدلة على وجوبه كثيرة، والمتكلمون يجعلون الحوادث هي الأصل في معرفة الله[١]، مع أن هذا ما جاءت به الرسل، لم يقولوا للناس: انظروا في الحوادث حتى تعرفوا الله؛ لأن هذا أمر ـ كما سبق ـ لا خلاف فيه، وهو واضح جلي، ولا يحتاج إلى تفكير.

والأدلة هي الفطرة والآيات التي يُحدِثها ربُّنا جلَّ وعلا؛ يقول ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى آخر الآية، كلُّها أدلة.. وآيات كثيرة على هذا.

والفطرة التي فَطَرَ الله ـ جلَّ وعلا ـ عباده على معرفته بها أيضًا من الأدلة؛ ولهذا يقول جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وفي قراءة أخرى: «ذرياتهم»[٢]، ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣].

فجعل هذا الأخذ معللًا بعلَّتين:

الأولى: ألَّا يغْفُلوا عن هذا الشيء.

الثانية: ألَّا يستدلوا بالتقليد؛ بتقليد الآباء، حيث يقولون: وجدنا آباءنا على هذه الطريق فاتَّبعناهم، كما هي أدلة المشركين؛ فالمشركون كلُّهم يقولون: وجدنا آباءنا على هذه الملة فاتبعناهم، ويعظمونهم، فيكون هذا مانعًا لهم من اتباع الرسل.

قوله: «**سبحانه**» سبحان: اسم مصدر من التسبيح، وهو مأخوذ من

---

(١) انظر: الإرشاد للجويني (ص١٧)، الإنصاف للباقلاني (ص٢٢)، الغنية في أصول الفقه للمتولي الشافعي (ص٨١).

(٢) انظر: إبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة (ص٤٨٤).

السَّبْح وهو البُعد[١]، وأنه بعيدٌ عمَّا يقوله المشركون والظالمون ﷻ.

«**فهو الحكيم**» الذي أحكم الأشياء خلقًا وإيجادًا وحُكمًا ـ تعالى وتقدَّس ـ والذي يضع الأمور في مواضعها.

«**الوارث**» يعني الذي يَرِث الخلقَ؛ فهو الباقي وخلقُه كلُّهم يَفْنَوْن ويموتون، والإرث: لمن سبق.

ثم الصَّلاة والسلام سرمدا على النبي المصطفى كنزِ الهدى

قوله: «**ثم الصلاة**» الصلاة من الله، أصحُّ ما قيل فيها: أنها ثناؤه جلَّ وعلا على عبده في الملأ الأعلى، عند الملائكة. روى البخاري في صحيحه في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء[٢].

أما الصلاة من الخلق: فهي الدعاء، قال ابن القيم رحمه الله: «والمعروف عند العرب من معناها [أي: الصلاة]، إنما هو الدعاء والتبريك والثناء»[٣].

و«**السلام**» من أسماء الله، وهو ذِكرٌ لاسمه في ضمنه الطلب بالسلامة، فربنا السلام، ومنه السلامة[٤]، كونه يسلم من النقص ومن العيب[٥].

وقوله: «**سرمدًا**» يعني: دائمًا.

---

(١) انظر: تاج العروس (٦/ ٤٤٦).
(٢) صحيح البخاري (٦/ ١٢٠).
(٣) جلاء الأفهام (ص١٦٥).
(٤) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ١٤٣).
(٥) انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٩٠).

قوله: «**على النبي المصطفى**» النبي: مأخوذ من الإنباء: أي الإخبار، أو من النَّبوة: أي الرِّفعة؛ لارتفاع قَدْرِه، ولأنه شُرِّف على سائر الخلق[١]، فإذا أخبر الله جلَّ وعلا وأوحى إلى أحد من خلقه فهو نبي.

والأنبياء من بني آدم ذكور ليس فيهم إناث، جاء عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: ليس في النساء نبيَّةٌ ولا في الجن[٢]؛ ولهذا قال الله ـ جلَّ وعلا ـ للرد على النصارى الذين يعبدون المسيح وأُمَّه: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي عيسى عليه السلام نبيٌّ خلت من قبله الرسل، وأُمُّه صِدِّيقة ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥] فكيف يكون من يأكل الطعام إلهًا؟! فكلُّ من يأكل الطعام فقير محتاج، والمحتاج الفقير لا يكون إلهًا، ثم إنه إذا أكل الطعام لزمه مِن أكله الطعام قضاء الحاجة، وهذا نقصٌ.

حُكي أن مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حُلَّةٌ يسحبها ويمشي الخيلاء، فقال: يا أبا عبد الله، ما هذه المشية التي يُبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أمَا تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أوَّلُك نُطفة مَذِرَةٌ، وآخرك جِيفةٌ قذرة، وحَشْوُك فيما بين ذلك بولٌ وعذرة[٣].

مقصود هذا أن الإنسان إذا تكبَّر يجب أنه يفكر في نفسه ماذا مبدؤه؟ وما نهايته؟ وما هو فيما بين ذلك، بين البداية والنهاية، ما حاله؟ فيجب ألا يتبختر، ولا يتكبر، ولا يجرَّ ثوبه خُيَلاء.

فالنبي هو من أُوحي إليه بشرع ولم يُكلَّف البلاغَ؛ ولهذا يكون الأنبياء في الأمة المسلمة. أما الرسول: فهو الذي أُوحي إليه بشرع كُلِّف ببلاغه ولا بد أن يرسل إلى أمة كافرة. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأنبياء

---

(١) لسان العرب (١٥/ ٣٠٢).
(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٤٧١).
(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص٢٣٧).

أنهم هم: «الذين لم يُرسَلوا إلى أُممهم وإنما كانت لهم النبوة دون الرسالة، فاختصوا عن الأُمة بإيحاء الله إليهم، وإرساله ملائكته إليهم واختصَّت الرسلُ عنهم بإرسالهم إلى الأُمة بدعوتهم إلى الله بشريعته وأمره، واشتركوا فى الوحي ونزول الملائكة عليهم»[(١)].

وقد مثَّل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ للنبي والرسول بحالة نبينا ﷺ، بقوله: نُبِّئ بـ«اقرأ»، وأُرسل بالمدثر[(٢)]؛ لأن «اقرأ» فيها أمرٌ بالقراءة فقط؛ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥]

هذا أول ما نزل من القرآن، ثم انقطع عنه الوحي وقتًا ولم ينزل عليه شيء، فهو في هذا الوقت وبعد نزول هذه الآيات نبي وليس رسولًا، لأنه لم يؤمر إلَّا بالقراءة فقط، ثم بعد ذلك أنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ٢] هنا صار نبيًّا رسولًا؛ حيث كُلِّف بالنذارة.

فإن قيل: كيف يُنَبَّأُ ولا يُؤمر؟!

قيل: ينبأ لخصوص نفسه، أو بأمور خاصة فقط.

قوله: «**المصطفى**» من الاصطفاء وهو الاختيار؛ فالله اصطفى نبيَّه واختاره كما قال ﷺ: «**إن الله اصطفى من بني إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[(٣)]، فهو صفوة من صفوة من صفوة صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: «**كنز الهدى**» يعني أنه جاء بالهدى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

---

(١) انظر: طريق الهجرتين لابن القيم (ص٣٤٩).
(٢) انظر: ثلاثة الأصول (ص٢٠).
(٣) أخرجه أحمد (١٦٩٨٧)، والترمذي (٣٦٠٦).

ولا هُدى إلَّا ما جاء به، فالذي يطلب الهدى من غير طريقه فهو ضالٌّ، ومصيرُه إلى جهنم، فهو كنز الهدى الذي يُهتدى به علمًا وعملًا. فالمهتدي: هو الذي يعلم العلم الصحيح ويعمل الأعمال الصالحة.

وآله وصحبه الأبرار معادنِ التقوى مع الأسرار

قوله: «**وآله**» إمَّا أن يكونوا هم الأهل أو الأتباع، وكثير من العلماء يختار القول الثاني؛ أن الآل هم أتباعه الذين على دينه[١].

و«**الصَّحْب**» جمع صاحب، والصحابي هو من لقي النبي عليه الصلاة والسلام وآمن به ومات على الإسلام[٢].

و«**الأبرار**» جمع بَرٍّ؛ يعني أنهم وصلوا إلى حد البِر في الإيمان والعمل، وهم صفوة الأُمة وخيرُها؛ بل هم خير الناس على الإطلاق بعد الرُّسل والأنبياء كما قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فأولُ من يدخل في هذا الخطاب صحابةُ رسول الله ﷺ، وكان ﷺ يحذِّر من الوقوع فيهم، ويقول: اعرِفُوا لهم حقهم، فمن عرَف حقَّهم فلأنه عرف الرسولَ، ومن جهل ذلك فلأنه جهل الرسولَ، ومن ازدراهم أو سَبَّهم فقد ازدرى الرسول ﷺ وسبَّه؛ ولهذا أوصى بهم فقال: «اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبَّهم فبحُبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم فببُغضي أبغضهم»[٣].

وكان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شجار، فأغلظ خالد الكلام على عبد الرحمن، فبلغ ذلك الرسولَ ﷺ فغضب فقال: «دعوا لي أصحابي، والله لو أنفق أحدكم مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه»[٤]؛ فإذا كان هذا الخطاب لمثل خالد بن الوليد

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: جلاء الأفهام (ص٢٠٣).
(٢) انظر: نخبة الفكر لابن حجر (....).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٦٢).
(٤) أخرجه أحمد (١٣٨١٢).

فكيف بالذين يأتون بعدهم؟!

لو قيل: ملئ الأرض ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، والـمُدُّ ربع الصاع، والنصيف يعني نصف المد[١].

إذا كان هذا في الذين أسلموا بعد الفتح بالنسبة لمن كان إسلامُه قبل الفتح، فكيف بالذين أتوا بعدهم؟

قيل لابن المبارك: أيُّما أفضل؟ معاوية، أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: الغبار الذي دخل في أنف فرس معاوية مع النبي ﷺ خيرٌ من مثل عمر بن عبد العزيز كذا وكذا مرة. اهـ[٢].

أما الحديث الذي فيه: «**إن من ورائكم أيامًا الصبرُ فيهنَّ مثلُ القبض على الجمر، للعامل فيهن مثلُ أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم**». قيل: يا رسول الله أجر خمسين رجلًا منَّا أو منهم؟ قال: «**بل أجر خمسين رجلًا منكم**»[٣].

فهذا لا يدل على المفاضلة، وإنما يدل على كثرة الأجر فقط، وقد يكون الأجر كثيراً ولكن لا يصل إلى ما يصل إليه الصحابة.

قال صاحب سبل السلام: «المفاضلة بين الأعمال بالنظر إلى الأعمال المتساوية في النوع، وفضيلة الصحبة مختصَّة بالصحابة لم يكن لمن عداهم شيء من ذلك النوع»[٤].

وقوله: «**معادن التقوى مع الأسرار**» يعني أن كل التقوى فيهم، وكذلك الأسرار التي من أسرار الإيمان بالله ومعرفته، والاهتداء بنوره ﷻ.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٠٨، ٥/ ٦٥).

(٢) مرقاة المفاتيح (١/ ٣٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، ابن ماجه (٤٠١٤).

(٤) سبل السلام للصنعاني (٢/ ٥٨١).

وبعد فاعلم أن كل علم كالفرع للتوحيد فاسمع نظمي

قوله: «**وبعد فاعلم**» هذا أمر بالعلم، وقوله: «**بعدُ**» انتقالٌ من أسلوب إلى آخر، وهي سُنة المصطفى ﷺ أنه كان إذا تشهَّد قال: أمَّا بعدُ، وقد قيل: إن هذه هي فصل الخطاب الذي أوتيه داود، والصحيح أن فصل الخطاب هو الفصل بين الحق والباطل وليست هذه الكلمة، ولكن هذه من الكلام البليغ[١].

وإذا جاء الأمر بالعلم «واعلم»، فالأمر الذي بعده يحتاج إلى التفكر والنظر، وكَدِّ الذهن والاجتهاد في ذلك.

قوله: «**فاعلم أن كل علم**» يعني أن العلم مجموع في التوحيد، والعلوم الأخرى فرع عليه، وهذا حق؛ ولهذا فإن كل الرسل أول ما يدعون أممهم يدعونهم إلى أن يعبدوا الله وحدَه كما في قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]، وكذلك كان رسولنا ﷺ أول ما جاء يدعو الناس إلى قول لا إله إلا الله، فعن ربيعة بن عباد الدِّيلي، وكان جاهليًا أسلم، فقال: رأيت رسول الله ﷺ بَصَرَ عيني بسوق ذي المجاز، يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا»[٢] لم يأمرهم بشيء قبل هذه الكلمة.

وكذلك كان ﷺ في آخر حياته، لما أرسل معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا أهلَ كتاب، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فإن أطاعوا لك في ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة»[٣]، رتَّب الأمرَ بالصلاة على إجابة التوحيد.

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٦/١٥٦).
(٢) أخرجه أحمد (١٦٠٢٣).
(٣) أخرجه أبو داود (١٥٨٤)، والترمذي (٦٢٥)، وابن ماجه (١٧٨٣).

قوله: «**كالفرع**» يعني أن العلوم الأخرى كالفرع للتوحيد.

قوله: «**فاسمع نظمي**» يعني أني سوف أنظم الكلام الذي يدلُّ على هذا، فاستمع له وافهمه.

لأنه العلم الذي لا ينبغي لعاقل لفهمه لم يبتغِ

قوله: «**لأنه العلم الذي لا ينبغي..**» يعني أنه يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلَّم علم التوحيد، ويعرف كيف يعبد الله، فالله ـ جلَّ وعلا ـ يُعبد بامتثال أمره واجتناب نَهْيِه، وبدعائه بأسمائه وصفاته، واعتقاد ذلك.

وقوله: «**لأنه العلم الذي لا ينبغي لعاقل**» يدل على أن التكليف مَنوطٌ بالعقل، والعقل يميِّز به الإنسان بين الضارِّ والنافع، وبين الفوق والتحت، واليمين والشمال. والعقل لا بد أيضًا أن يكون تمييزه له حد؛ فالله ـ جلَّ وعلا ـ لرحمته لم يكلِّف إلَّا العقلاء، فلم يكلف البهائم ولا الصغير حتى يعقل، وكذلك المجنون، والنائم؛ فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «رُفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل»[1].

قوله: «**لا ينبغي**» يعني لا يجوز لعاقل أن يُهمل هذا الأمر، بل يجب عليه أن يعرف ربَّه ـ جلَّ وعلا ـ حتى يعبده على علم، والعبادةُ إن لم تكن على علم لا تنفع، بل تكون مردودة.

فيعلم الواجب والمحالا كجائز في حقه تعالى

هذا البيت تحته أمور كثيرة من كلام المتكلِّمين، والمؤلف رحمه الله في شرحه ذكر أشياء ما كان ينبغي أن يذكرها، ولكن تأثر بعلم الكلام.

قوله: «**فيعلم الواجب**» يعني يجب أن يعرف أنه عليم، قدير على كل

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤١).

شيء، وأنه ـ جلَّ وعلا ـ لا يتطرَّق إليه نقص ولا عيب، وأنه له الكمال المطلق من كل وجهٍ، تعالى وتقدَّس.

و«**المحال**» العيبُ والنقص، فهو مُحال على الله جلَّ وعلا، ولكن كل هذا ليس منوطًا بالعقل، بل العقل يكون تبعًا للشرع الذي جاء به المصطفى ﷺ.

ولهذا قال: يجب أن يعلم الواجب الذي لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلا، وكذلك يعلم المحال، وكذلك الجائز، والجائز على الله مثلُ كونه يخلق ويرزق، وقد قالوا: إن ذلك مثلُ إرسال الرسل؛ لأن إرسال الرسل للتبليغ. ولكن هل يجوز أن يقال: إنه يجب على الله أن يخلق، ويجب عليه كذا وكذا..؟

فإن الله ـ جلَّ وعلا ـ قد أخبر أنه يجب عليه أشياء هو أوجبها على نفسه، فقد قال المصطفى ﷺ لمعاذ: «أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟»[1] فجعل للعباد حقًّا، والله جل وعلا هو أحقه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧] وهذا الحق هو الذي أحقه، وهذا ما يسمى الواجب، ولكن المتكلمين يجعلونه من الجائز، الذي لا يتحتم فعله.

وصار من عادة أهل العلم أن يعتنوا بسبر ذا بالنظم

أي صار من عادة أهل العلم أن يعتنوا بالمعلومات، ولا سيما علم التوحيد، فقد اعتنوا به وبنظمه؛ لأن النظم يكون أتمَّ للحفظ، سهلًا محبَّبًا إلى كثير من النفوس، لكن الحفظ يجب أن يكون معه فَهْمٌ؛ ولهذا علَّل ذلك بقوله:

لأنه يسهل للحفظ كما يروق للسمع ويشفي مِن ظما

يعني أن النظم هذه صفاته؛ يجمع المعلومات، ويسهل الحفظ،

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥٨٤٦).

وكذلك يروق للإنسان؛ حيث إن النفوس تميل إليه وتحبه، لأنه موزون، مرتَّب الكلمات مسجوع.

قوله: «**ويشفي من ظما**» الظما هنا يعني الحاجة، وكذلك يطلق على الجهل، وعلى فَقْدِ ما يُحتاج إليه، فهو ـ أي النظم ـ يشفي من هذا كله.

قال صاحب مطالع الأنوار: «ومن المعلوم لدى طلبة العلم فضلًا عن العلماء، أن أكثر ما يثبت في الذهن هي هذه المنظومات؛ لسهولة تناولها وحفظها، فيستطيع طالب العلم أن يلم ويحصِّل الكثيرَ من العلم في مختلف الفنون بحفظ نظمٍ فيه؛ لذا أخذ العلماء قديمًا وحديثًا على عاتقهم مشقَّةَ ذلك، وقاموا بنظم الكثير من أنواع العلم وفنونه، وصياغتها في أبيات»[(١)].

فمن هنا نظمت لي عقيده أرجوزةً وجيزةً مفيده

«**نظمت لي عقيدة**» أي أن هذه تسمى عقيدته، وإن كانت عقيدة المسلمين عمومًا وليست عقيدة رجل واحد، لكن يقول: أنا أعتقد هذا الذي نظمته.

و«**أرجوزة**» يعني أنها موزونة على بحر الرجز، وهو من أسهل بحور الشعر وأسلسها[(٢)].

نظمتها في سلكها مقدمه وستُّ أبواب كذاك خاتمه

يعني أنها تشتمل على: مقدمة، وستة أبواب، وكذلك خاتمة، وقد يكون نظمها بلا مقدمة، ثم نظم هذه المقدمة بعد ذلك، أو أنه ـ مثلًا ـ تصوَّرها هكذا: المقدمة، الأبواب، الخاتمة، في ذهنه، ثم نظمها، يجوز

---

(١) مطالع الأنوار لابن قرقول (١/١٢٨).

(٢) الرجز هو أحد بحور الشعر الستة عشر، وتفعيلاته: (مستفعلن مستفعلن مستفعلن... مستفعلن مستفعلن مستفعلن). انظر: اللباب، لمحمد علي السراج (ص١٨٨، ١٩١).

هذا وذاك ولكن الأول هو الأقرب. وهذه عادة المؤلفين؛ أن الواحد منهم إذا فرغ من مؤلَّفِه، ورَتَّبَه وأعاد النظر فيه، وضع خُطبته وتسميته ووصفه، والله أعلم.

وسَمْتها بالدرة المُضيَّة في عقد أهل الفرقة المرضية

وقوله: «**وسَمْتها**» من الوَسْم وهي العلامة، أي جعلت عليها علامة.

و«**الدرة**» هي اللؤلؤة العظيمة.

و«**المضية**» المضيئة، وسُهِّلت الهمزة لاستقامة البيت، يعني أن لها إضاءة ونور. وسماها كذلك؛ لأنها مضيئة لمن قرأها لما فيها من فوائد تتعلق بالعقيدة.

«**في عقد أهل الفرقة المرضية**» أي: المرضيَّة عملًا، وعقيدة، واتباعًا لرسول الله ﷺ.

على اعتقاد ذي السداد الحنبلي إمامِ أهل الحق ذي القدر العلي

يعني أنها على عقيدة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه إمام أهل الحق والسنة، وللسنة رجال يعرفون بها. والحق لا يُعرف بالرجال، وإنما الرجال يعرفون بالحق، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله»[1]، والحق لا يتجزَّأ ولا يخفى عمَّن طلبه.

قوله: «**إمام أهل الحق ذي القدر العلي**» لما قام به من الجهاد والصبر على الأذى فجعله الله إمامًا كما أخبر عن المصطفين أنه اصطفاهم وجعلهم أئمة لما قاموا بالحق وصبروا من أجله، وتحمَّلوا في سبيل الله جل وعلا أذى الناس؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، والإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ كان كذلك.

---

(١) ...

حبرِ المَلا فردِ العُلى الرباني رب الحجى ماحِي الدجى الشيباني

«**الحبر**» العالم[١].

و«**الملا**» أشراف الناس[٢].

و«**فردُ العُلى**» أي: واحد في الخصال السامية.

و«**رب الحجى**» يعني صاحب العقل[٣].

و«**الدُّجَى**» الظُّلمة[٤]، والمقصود بها ظُلمة الجهل، أي: ماحي الجهل بالعلم وبالجهاد.

و«**الربَّاني**» يعني الذي تربَّى على العلم ورَبَّى عليه، فهو عالم رباني يربِّي أتباعه ومَن تتلمذ عليه بالعلم النافع.

و«**الشيباني**» نسبةً إلى جَدِّه الأعلى شيبان بن ذُهْلٍ[٥].

فإنه إمام أهل الأثرِ فمن نحا منحاه فهو الأثري

«**الأثَر**» يعني ما أُثر عن النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم[٦]، وقد عُرف الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه إمام أهل السنة؛ لما أعطاه الله جلَّ وعلا من الجهاد والصبر على الحبس والإيذاء والتعذيب الشديد في الدفاع عنها، وذلك في المحنة التي وقعت في عصر المأمون[٧]، والتي امتُحن فيها القضاةُ والمحدِّثون في القول بخلق القرآن، وحصل لهم من التعذيب والإيذاء ما اضطر بعضَهم إلى القول بذلك مُكرَهين، وكان منهم

---

(١) انظر: لسان العرب (٤/ ١٥٧).
(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٥/ ٢٩٠).
(٣) انظر: لسان العرب (١٤/ ١٦٦).
(٤) انظر لسان العرب (١٤/ ٢٥٩).
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٧ ـ ١٧٩).
(٦) انظر: تنبيه الرجل العاقل لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٥٦٠).
(٧) انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٢٠٧).

من يتأوَّل، وقد وقع للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ من الإيذاء والضرب حتى إنه كان يُغمى عليه، وتسيل الدماء منه، وهم يريدون منه أن يقول ببدعتهم، فيأبى إلَّا أن يقول الحقَّ، وثبَّته الله على هذا وجعله إمامًا لأهل الأثر.

«**فمَن نحى منحاه فهو الأثري**» يعني مَن سلك طريقه الذي اتبع، ومنهجه الصحيح فهو الأثري، وقول السفاريني هذا لا بأس به؛ فالإمام الحق والمُتَّبَع هو الرسول ﷺ، وهو ـ أي الإمام أحمد ـ مقتفٍ برسول الله ﷺ، فاستحقَّ أن يكون إمامًا كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «خرجت من بغداد فما خلَّفت بها رجلًا أفضلَ ولا أعلمَ ولا أَفْقَهَ ولا أتقى من أحمد بن حنبل»[(١)].

سقى ضريحاً حلَّه صوبُ الرضا والعفو والغفران ما نجمٌ أضا

«**الضريح**» هو القبر.

و«**حلَّه**» أي نزل فيه[(٢)].

و«**الصوب**» المطر[(٣)].

وهذا دعاء بأن يَسقي ضريحَ الإمام أحمد صوبُ الرضا من الله عَزَّوَجَلَّ، وقد كان ذلك كما هو المرجو على حسب وعد الله جل وعلا، فاللهُ إذا رضي عن عبدٍ أرضى الناسَ عنه.

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان أحمدُ عظيمَ الشأن، رأسًا في الحديث وفي الفقه، وفي التألُّه، أثنى عليه خلقٌ من خصومه، فما الظن بإخوانه وأقرانه؟! وكان مَهِيبًا في ذات الله، حتى لَقال أبو عبيد: ما هِبتُ أحدًا في مسألة، ما هِبتُ أحمدَ بن حنبل»[(٤)].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٥).
(٢) انظر: المصباح المنير (١/ ١٤٧).
(٣) انظر: المصباح المنير (١/ ٣٤٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٠٣).

وقال: «كان يجتمع في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف ـ أو يزيدون نحو خمسمائة ـ يكتبون، والباقون يتعلَّمون منه حُسنَ الأدب والسَّمت»[١].

قوله: «**والعفو والغفران ما نجمٌ أضا**» هنا يسأل المصنِّفُ العفوَ للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عما قصَّر، وكذلك الغفران، ما نجم أضا؛ يعني أنار؛ أي: أسأل الله العفو والغفران له ما دامت النجوم تضيء.

وحلَّه وسائرَ الأئمه منازل الرضوان أعلى الجنه

قوله: «**وحَلَّه وسائر الأئمة**» أي: أنزله وأنزل سائرَ أئمة الإسلام ـ كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وسفيان الثوري، وغيرهم ـ منازلَ الرضوان أعلى الجنة.

وهذا دعاء للإمام أحمد ولغيره من أئمة المسلمين، نسأل الله جل وعلا أن يستجيبه.

❁ ❁ ❁

(١) سير أعلام النبلاء (١١/٣١٦).

مقدمة

في ترجيح مذهب السلف
على غيره من سائر المذاهب

اعلم هديت أنه جاء الخبر عن النبي المقتفى[١] خير البشر

قوله: «**اعلم هُديت أنه جاء الخبر**» يعني عن النبي ﷺ من الأحاديث التي في الصحيحين وكذلك في السُّنن، أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقةً، في السنن: «**كلُّها في النار إلَّا واحدة**»[٢]، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»[٣].

هذا من نصوص الوعيد التي يجب أن تمر ولا يؤخذ بظاهرها؛ حتى لا يكون ذلك تكفيرًا للناس.

فهذه من الفِرَق الثلاث والسبعين ـ أو الثنتين والسبعين ـ التي ذكرها، ما عدا الفرقة الناجية، كلُّها من أهل الإسلام ولم تخرج من الدين الإسلامي؛ ولهذا يقول: إن هذه الأمة أُمَّةُ الإجابة، التي استجابت للنبي ﷺ، لكنها متوعَّدة بالنار، وكونها متوعدةً بالنار لا يقتضي أنها كافرة، وأنها خرجت من الدين الإسلامي ـ كما هو مذهب الخوارج[٤]، ومذهب أهل الجهل والضلال الذين يرون في آرائهم الخاطئة سفكَ دماء المسلمين وقتلَهم، يرون أن ذلك من الواجبات، ارتكبوا أعظم الإجرام جهلًا وضلالًا، نسأل الله العافية!!

---

(١) وفي نسخة: المصطفى.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٩٣).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).
(٤) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ٣٦).

ودمُ المسلم من أعظم الـحُرُمات، زوالُ السموات والأرض أسهلُ عند الله ـ جلَّ وعلا ـ من إراقة دم مسلم بغير حق، كما جاءت الآثار في ذلك[١]، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فهل هناك وعيد أشدُّ من هذا؟ نسأل الله العافية!!

والمصطفى ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلَّا الرجلَ يموت مشركًا، أو يقتل مؤمنًا متعمدًا**»[٢]، وهذه مشكلة في الواقع، وسببها الجهل، نسأل الله العافية!!

فقوله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة**»[٣]، هذا من أعلام النبوة ومن دلائلها؛ فقد افترقت الأمة على هذه الفرق، وربما بقي شيء، مع أن العلماء حاولوا أن يحصوها: وأحصوها ولكن ليس جزمًا وإنما تحرٍّ.

قال صاحب كشف الخفاء: «من أصول الفرق: الحرورية، والقدرية، والجهمية، والمرجئة، والرافضة، والجبرية. وقد قال بعض أهل العلم: أصلُ العلم الفرق هذه الست، وقد انقسمت كل فرقة منها اثنتي عشرة فرقة، فصارت اثنتين وسبعين فرقة»[٤].

بأن ذي الأمةَ سوف تفترقْ بضعاً وسبعين اعتقاداً والمُحِقْ

وقوله: «**ذي الأمة**» يعني الأمة التي استجابت للنبي ﷺ؛ لأن الأمة تنقسم إلى قسمين: أمة الإجابة وأمة الدعوة.

---

(١) انظر: مسند البزار (٢٣٩٣)، شعب الإيمان (٤٩٨٥).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٧٠)، والنسائي (٣٩٨٤).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩٢).
(٤) كشف الخفاء للعجلوني (١/ ١٥١).

أما أمة الدعوة؛ فهم كل من على وجه الأرض من الجن والإنس فهم مدعوون إلى أن يستجيبوا لرسول الله ﷺ، ومن لم يستجب له فهو في النار، كما قال ﷺ: «**والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار**»[(١)]، فعلَّق الأمر بالسماع؛ وذلك أن الإنسان عنده عقل، فإذا سمع أن لله نبيًّا وجب عليه أن يبحث عن النبوة التي جاء بها، وعن رسالته، ولا يكتفي بسماع الأخبار عنه أنه كذا وكذا؛ لأن الكفَّار ـ لا سيما في زماننا هذا ـ يعملون على تشويه دعوته ﷺ، فتصل إلى كثير من الناس مشوَّهةً بل معكوسة تمامًا حتى إنهم ليجعلون المسلمين من أَكَلَةِ لحوم البشر، ويتهمونهم بأنهم إرهابيون، وكثير من الناس يكتفي بهذا التشويه، فهذا غير معذور؛ لأنه لم يُكلَّف باتباع الناس ولا بأخذ أقوالهم، وإنما هو مكلَّف بالنظر فيما جاء به المصطفى ﷺ.

ولهذا فإن العقلاء من الكافرين الآن إذا سبروا[(٢)] دعوة الرسول ﷺ ونظروا فيها؛ عَرَفوا أنه على الحق، وقد يُسلمون وقد لا يسلمون.

قوله: «**سوف تفترق**» «سوف» للاستقبال، وجيء بها؛ لأنه إخبار عن شيء قبل وجوده، وقد صار دليلًا على نبوته ﷺ؛ حيث افترقت الأمة إلى معتزلة[(٣)]، وجهمية[(٤)]، .....

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

(٢) السَّبر: التجربة. وسبر الشيء سبرًا: خبره. واسبر لي ما عنده، أي: اعلمه. لسان العرب (٤/ ٣٤٠).

(٣) أصحاب واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ولكن في منزلة بين المنزلتين. انظر: الملل والنحل (١/ ٣٨).

(٤) أتباع جهم بن صفوان الذي قال بالجبر وأن الإيمان معرفة بالله فقط، وقال بفناء الجنة والنار. انظر: الفرق بين الفرق (ص١٩٩).

وأشعرية[١]، ورافضة[٢]، وغيرها من الفرق.

يقولون: إن أصل هذه الفرق أربع، افترقت منها: الخوارج، والشيعة والمرجئة والقدرية، المرجئة دخل فيها الجهمية وغيرهم.

قال الطُّرْطُوشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن علماءنا رضي الله عنهم قالوا: أصول البدع أربعة، وسائر الأصناف الثنتين وسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا وتشعبوا، وهم: الخوارج - وهي أول فرقة خرجت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه - والروافض، والقدرية، والمرجئة»[٣].

فهذه الفرق الأربع، انقسمت كل فرقة منها إلى أقسام كثيرة بعضها وصل إلى أربع وعشرين، وبعضها اثنين وعشرين، فبلغت ثلاث وسبعين، والفرقة الناجية هي واحدة فقط، أمَّا الباقي فهو من أهل الوعيد، يعني المتوعدين بالنار.

قال حفص بن حميد: قلت لعبد الله بن المبارك: على كم افترقت هذه الأمة؟ فقال: «الأصل أربع فرق: هم الشيعة، والحرورية، والقدرية، والمرجئة؛ فافترقت الشيعة على ثنتين وعشرين فرقة، وافترقت الحرورية على إحدى وعشرين فرقة، وافترقت القدرية على ست عشرة فرقة، وافترقت المرجئة على ثلاث عشرة فرقة[٤].

---

(١) فرقة كلامية إسلامية، تنسب لأبي الحسن الأشعري الذي خرج على المعتزلة. وقد اتخذت الأشاعرة البراهين والدلائل العقلية والكلامية وسيلة في محاججة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم، لإثبات حقائق الدين على طريقة ابن كلاب. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب (١/ ٨٣).

(٢) هم الذين رفضوا إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويطعنون فيهما، وهم مجمعون على أن النبي ﷺ نص على استخلاف علي بن أبي طالب باسمه وأظهر ذلك وأعلنه وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الإمامة لا تكون إلا بنص وتوقيف. انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٦).

(٣) الحوادث والبدع (ص٣٣).

(٤) الإبانة لابن بطة (١/ ٣٨٩).

ما كان في نهج النبي المصطفى وصحبه من غير زيغ وجفا

يعني أن الناجي هو الذي سلك طريق النبي ﷺ؛ إذ إن الحق واحد لا يتعدَّد، والغريب أن المؤلف ـ في شرحه لهذه المنظومة ـ يقول: إن أهل السنة ثلاثة، وهم: الأشاعرة، والحنابلة، وأهل الحديث.

وهذا من الخطأ الواضح.

أهل السنة وأهل الحق واحد لا يتعددون، سواءٌ تَسَمَّوْا حنابلةً، أو تسمَّوْا أهلَ أثرٍ، أو غير ذلك.

فمَن كان سالكًا مسلكَ الرسول ﷺ، مُتَّبِعًا له، فهو من أهل السنة، أمَّا التسمي بالأسماء التي تدلُّ على الافتراق فهذا من البدع والضلال، ولا يجوز للإنسان أن يُسمي نفسه، أو أن يتبع من الأسماء ما لم يأتِ به رسول الله ﷺ؛ كأنْ يقول: أنا أشعري، أو أنا معتزلي، أو أنا كذا وكذا، فهذا من المحرمات، وهو من أسباب التفرُّق والتشتُّت، بل إن السلف كانوا يحذرون من التسمي بغير الإسلام؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَن أقرَّ باسمٍ من هذه الأسماء المحدَثة، فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه»[(١)].

وقال مالك رحمه الله: «أهل السنة: الذين ليس لهم لقب يُعرفون به؛ لا جهمي، ولا قدري، ولا رافضي»[(٢)].

قوله: «**صحبه**» أي الصحابة رضي الله عنهم.

وقوله: «**من غير زيغ**»، أي من غير ميل عن الحق، ومن غير «**جفا**» أي تقصير، ومن غير زيادة ولا نقصان.

والحقيقة أن النقص لا يأتي إلَّا من هذين الأمرين، إمَّا زيغ أو جفاء، يعني نقصًا عما أمر به المصطفى ﷺ أو زيادة عليه، زيادة بدع وضلال.

---

(١) الإبانة الكبرى (١/ ٣٥٣).

(٢) الانتقاء لابن عبد البر (ص٣٥).

وليس هذا النص جزماً يعتبر في فرقة إلا على أهل الأثر

هذا القول على خلاف ما ذكر، فأهل الأثر هم الذين اتبعوا أثر المصطفى ﷺ، والأثر يطلق على حديثه صلوات الله وسلامه عليه، فمن كان متبعًا لرسول الله ﷺ فيما جاء به فهو الناجي، ومن الفرقة الناجية؛ ولهذا لـمَّا سُئل الإمام أحمد عن الفرقة الناجية، قال: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»[(١)]، ومعنى هذا أنه هم أهل الحديث.

وذكر الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: أن الفرقة الناجية هم أهل العلم[(٢)]، والعلم الصحيح هو ما جاء به الرسول ﷺ، فهذه الفرقة هي التي تنجو من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وهي فرقة واحدة، وقد جاء وصفُها بأنهم لا يضرُّهم مَن خالَفَهم ولا مَن خذلهم[(٣)].

فمن خالفهم أي مَنْ كان على غير عقيدتهم، أما الخِذلان فيكون ممن هو على عقيدتهم؛ وذلك بألَّا ينصرهم، فهذه الفرقة الناجية لا يضرهم هؤلاء ولا هؤلاء.

وهذه بشارة بأنَّ الحق يبقى إلى قيام الساعة، والساعة المقصود بها: الريح التي تقبض كلَّ مسلم ومسلمة في آخر الزمان، ثم يبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الـحُمُرِ[(٤)]، وعليهم تقوم الساعة[(٥)].

---

(١) انظر: شرح السنة للبغوي (١٤/ ٢١٣).

(٢) انظر: صحيح البخاري (٩/ ١٠١).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٣٧٠)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٥٨).

(٤) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يتهارجون تهارج الحمير، أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ولا يكترثون لذلك، والهرج ـ بإسكان الراء ـ الجماع، يقال: هرج زوجته، أي: جامعها» شرح صحيح مسلم للنووي (١٨/ ٧٠).

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

فالساعة تطلق أحيانًا ويراد بها فناء الجيل المعين، أو القرن المعين، كما جاء في الحديث لـمَّا سُئل النبي ﷺ: متى الساعة؟ وعنده غلام من الأنصار، قال: «**إن يَعِشْ هذا الغلام، فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة**»[1]؛ يعني أن ساعة ذلك القرن تنتهي بآخر من يموت منه، ثم يأتي قومٌ لهم ساعةٌ أخرى.

فالساعة إذًا تنقسم إلى قسمين:

الأول: ساعة مؤقتة محدودة معيّنة لجيل أو لرجل، فإذا مات الإنسان قامت ساعته، وإذا انقرض الجيل قامت ساعته.

الثاني: ساعة عامة، وهي النفخ في الصور، إذا نُفخ في الصور النفخة الأولى مات كل من في السماوات و الأرض، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله: «**في فرقة إلا على أهل الأثر**» يعني أن هذا النص المذكور لا يصدق ولا يعتبر إلا على الفرقة الناجية التي أخبر عنها الرسول ﷺ بأنها منصورة، وأنها لا تزال على الحق إلى أن يأتي أمر الله وهم على ذلك، أهل الأثر المُظهرون للسنة القامعين للبدعة.

والأثر: المقصود به الكتاب والسنة، فأهل الأثر هم الذين علموا ذلك وتحققوه وتحلَّوْا به واتبعوه، فهؤلاء هم الذين عَناهم الرسول ﷺ بالفرقة الناجية؛ التي تنجو من عذاب الدنيا وكذلك عذاب الآخرة، وهي المنصورة؛ لأنها ثابتة على الحق.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٣).

قول أهل السنة في النصوص

فأثبَتوا النصوص بالتنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه

قوله: «**فأثبَتوا النصوص بالتنزيه**» يعني أنهم قَبِلوا ما تعرَّف الله جلَّ وعلا به إلى عباده من أوصافه وأسمائه وآياته، وكذلك ما جاء به الرسول ﷺ من غير تحريف، ولا تَكْيِيف، ولا تمثيل، ولا تأويل أيضًا، والذي يُسمى تأويلًا هو في الواقع تعطيل.

أمَّا كلمة «تنزيه» ففيها أمور كثيرة ابتدعها المتكلِّمون، فقد نَفَوا صفات الله جل وعلا باسم التنزيه، وزعموا أن إثبات الصفات ـ سواءٌ صفات الذات أو صفات الأفعال ـ يقتضي التشبيه، فنفوها، وهذا من الباطل.

وقوله: «**من غير تعطيل**» التعطيل: هو الخلو من الشيء، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج:٤٥] يعني: لا يُستقى منها ولا ينتفع بها، وخلت من أهلها ومن المستعمل لها[1].

فالتعطيل معناه: تعطيل الصفات أن تقوم بالرب جل وعلا، أو تعطيل معاني الصفات وجعلها مجرد ألفاظ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأصل الشرك وقاعدته التي يُرجع إليها، هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدَّس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله،

(١) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٥٤).

وتعطيل معاملته عمَّا يجب على العبد من حقيقة التوحيد»[١].

ونفي الصفات وتعطيلها كلاهما جاء عن المتكلمين.

وقوله: «**ولا تشبيه**» يعني أنهم لا يشبهون الله جل وعلا بخلقه، تعالى وتقدس، بل يُثبتون الصفات مع معرفة معانيها والعمل بها، وكذلك يبتعدون عن التشبيه.

وكان الأولى بالمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن يقول: «ولا تمثيل» بدلًا من «ولا تشبيه»؛ لأن التشبيه لم يأتِ إثباتُه ولا نفيه في كتاب الله جل وعلا، وإنما جاء نفي التمثيل، فالله لا مِثلَ له تعالى وتقدس، ولا كُفْوَ ولا نِدَّ؛ لأن التشبيه صار فيه إجمال واشتباه عند كثير من الناس.

وكثيرٌ منهم يجعل إثبات الصفات تشبيهًا، وهو ليس كذلك؛ لأنهم زعموا أن الأصل الذي بَنَوْا عليه هو ما يعرفونه من المُشَاهَد، يعني من أنفسهم، فهم لا يعرفون ـ مثلًا ـ الوجه إلَّا ما كان مثلَ أوجُههم، ولا يعرفون اليدَ إلَّا الجارحة، والرِّجل كذلك، فنفوا هذه الأشياء؛ لذا فإن الواحد منهم إذا أراد أن يثبت اليد يتحرز بقوله: بلا جارحة.

وكذلك في السمع والبصر، وما أشبه ذلك.

ما الذي جاء بكلمة جارحة؟

أنهم كأنما ارتسم في أذهانهم أن اليد إذا أُطلقت أن المقصود بها الجارحة، ولكن هذا الإطلاق إذا كان غيرَ مضافٍ أو مخصَّص، فإذا أضيف إلى الله جلَّ وعلا فهو على ما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ لأن الصفة تتبع الموصوف، وكما أنه ليس له مثل في ذاته كذلك لا مثل له في صفاته، فهي خاصة به تعالى وتقدس.

---

(١) الداء والدواء (ص١٣٠).

فكل ما جاء من الآيات أو صحَّ في الأخبار عن ثقات

يعني: أنهم يقبلون كل ما جاء في كتاب الله، فهو كله حق، ويجب أن يُعطى حقَّه من الفهم من غير غلو ولا نقصان ولا جفاء، ثم يُعمل به؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ يعني: اعبدوه، فهذا من العبادة التي يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا.

أمَّا الأحاديث؛ فلا بُدَّ أن تكون صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ، كما يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أو صح في الأخبار عن ثقات**»، ولا فرق في هذا بين ما كان في العقيدة، أو ما كان في العمل؛ فكلُّه يجب أن يكون صحيحًا، غير أن العلماء تساهلوا في الأخبار التي جاءت في الفضائل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود أن هذه الأحاديث التي تُروى في ذلك من جنس أمثالها من الأحاديث الغريبة المنكرة، بل الموضوعة التي يرويها مَن يجمع في الفضائل والمناقب الغثَّ والسمين كما يوجد مثل ذلك فيما يصنف في فضائل الأوقات، وفضائل العبادات، وفضائل الأنبياء والصحابة، وفضائل البقاع ونحو ذلك؛ فإن هذه الأبواب فيها أحاديث صحيحة وأحاديث حسنة وأحاديث ضعيفة وأحاديث كذب موضوعة؛ ولا يجوز أن يُعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوَّزُوا أن يُروى في فضائل الأعمال ما لم يُعلم أنه ثابت إذا لم يُعلم أنه كذب»[1].

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٥٠).

مـن الأحـاديـث نُـمِـرّه كـمـا قد جاء فاسمع من نظامي واعلما

يعني: أنها تمر على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف.

أمَّا التأويل فمعروف، وسيأتي الكلام عنه.

وأما التكييف: فطلب الكيفية؛ وهذا ممنوع ولا يوصل إليه، وليس معنى ذلك نفي الكيفية مطلقًا؛ لأن الكيفية معناها: الحالة التي عليها الموصوف، وهذا شيء لا بد منه، ولكن هذا مجهول للخلق، فالمنفي هو علمُ الخلق بها ليس علم الناس فقط.

وكما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ لـمَّا سُئل عن الاستواء، قال: «الاستواءُ معلومٌ، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1].

وهكذا يقال في جميع الصفات: أن الكيفية مجهولة، والنفي: هو نفي علم العباد بها، أي بالكيفية.

وأمَّا نفي التمثيل: فهو نفي مماثلته ﷻ للمخلوقات، فهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته، ولا في أفعاله، ولا في أوصافه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالرسلُ وصفوا الله بصفات الكمال، ونزَّهوه عن النقائص المناقِضة للكمال، ونزَّهوه عن أن يكون له مثلٌ في شيء من صفات الكمال، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل، ونفوا عنه التمثيل»[2].

وقوله: «**قد جاء فاسمع من نظامي واعلما**» يعني: اسمع سماعَ فَهمٍ وقَبول، وليس مجرد سماع فقط.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٧/ ١١).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٤٠٦).

ولا نـردُّ ذاك بـالـعـقـول لـقـولِ مُـفْـتَـرٍ بـه جـهـول

يعني: أن الآيات التي جاءت في وصف الله جلَّ وعلا، وكذلك الأحاديث، لا يجوز أن نُحكِّمَ العقل فيها؛ بل هي الحاكمة على العقول، ولا نفعل كفعل أهل الكلام الذين يجعلون العقل هو المرجع في إثبات النصوص، وقد ضلوا في هذا؛ ولهذا قال: «**لقول مفتر به جهول**»؛ يعني أن مَن فعل ذلك فهو مفترٍ على الله وعلى رسوله ﷺ، وهو جهول بذلك، وقد يكون قاصدًا لهذا الأمر فيكون أعظم ضلالًا وإثمًا.

فعِقْدُنا الإثباتُ يا خليلي من غير تعطيل ولا تمثيل

قوله: «**فعقدنا**» أي: فعقيدتُنا، يعني أن عقيدتنا أن نُثبت لله ما أثبَتَه الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ في أوصافه ﷻ وأسمائه تعالى وتقدَّس، على ما يليق بعظمته وجلاله من غير أن تكون المعاني التي دلَّت عليها ألفاظ هي معاني الخلق؛ بل هي معانٍ تليق بالله وبعظمته تعالى وتقدس.

يعني أن الأمة كلها متفقة على أنه جلَّ وعلا ليس له مثيل في ذاته، فذاتُه لا تُشبه الذوات، فإذا كان هذا محلَّ اتفاقٍ، وجب أن تكون الصفة تبعًا، لا تشبه أوصاف الخلق، وكذلك أفعالُه تعالى وتقدس، وسيأتي مزيد لهذا إن شاء الله.

فكل من أوَّل في الصفاتِ كذاته من غير ما إثبات

وقوله: «**كلُّ مَن أوَّل**» التأويل له معانٍ صحيحة ومعانٍ باطلة؛ فالتأويل جاء يُقصد به حقيقة الشيء ومآلُه الذي يؤول إليه كما في قصة يوسف حينما سجد له أبواه وإخوته قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] لـمَّا رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين، فلما سجدوا قال: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾، فكان الأحد عشر كوكبًا عبارة عن إخوته، والشمس والقمر عبارة عن أبويه.

وقوله: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ﴾ أي حقيقة الرؤيا التي رأيتها.

وكذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] يعني: الحقائق التي أخبر عنها يوم يشاهدونها ويعيشونها.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن الغالب في القرآن إطلاقُ التأويل على حقيقة الأمر التي يؤول إليها؛ كقوله: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ﴾، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ الآية، وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

قال ابن جرير الطبري: وأصل التأويل مِن آلَ الشيءُ إلى كذا؛ إذا صار إليه ورجع، يَؤُول أَوْلًا، وأَوَّلتُه أنا؛ صيَّرتُه إليه»[(١)].

فهذا كثيرٌ ذِكرُه في كتاب الله جلَّ وعلا، وكذلك التأويل بمعنى التفسير، فهو معنى صحيح كما يقول إمام المفسرين ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: «القول في تأويل قوله كذا»؛ يعني القول في تفسيره.

هذان معنيان صحيحان ثابتان في كتاب الله جلَّ وعلا، دلَّ عليهما كتاب الله وكذلك آثار السلف[(٢)]، وكذلك اللغة[(٣)].

أمَّا المعنى الثالث: فهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر إلى معنى لا يدل عليه إلَّا بقرينة أو بدليل، هذه القرينة والدليل لا ضابطَ لها عندهم؛ لأنهم جعلوا الدليل العقل، والعقل يختلف باختلاف العقلاء، واختلاف الأنظار، واختلاف التربية، واختلاف العقائد، فالحق عند إنسان يكون باطلًا عند آخر، والباطل عند إنسان يكون حقًّا عند آخر،

---

(١) أضواء البيان (١/ ١٨٩).
(٢) انظر: التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٩٢)، الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ١٨١).
(٣) انظر: لسان العرب (١١/ ٣٢).

وهذا المعنى مستحدَث ليس معروفًا عن السلف، بل حدث أخيرًا، وهذا الذي سماه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ طاغوتًا من الطواغيت التي أضلَّت كثيرًا من الناس[1]، ومجاله واسع جدًّا؛ فهم حرَّفوا كلام الله، وكلام رسوله ﷺ باسم التأويل، وكذلك العمليات دخل عليها أيضًا هذا التأويل.

فكلُّ تأويل للحقيقة يجب أن يُسمَّى تلاعبًا في كتاب الله، فهو تحريف في الواقع.

فقد تعدى واستطال واجترى وخاض في بحر الهلاك وافترى

هذه خمس صفات ذكرها، كلُّها صفات سيئة جدًّا: «تعدَّى، استطال، واجترى، وخاض في بحر الهلاك، وافترى»، والافتراء هو الكذب؛ يعني إذا اجتمعت فيه فقد هلك هلاكًا محتمًّا.

قوله: «**تعدَّى**» أي: تعدى طوره وتعدى الحق الذي رُسم له، وتعدى على النص وقائله حيث كلم الناس بما لا يريد.

قوله: «**واستطال**» أي: إلى شيء ليس من شأنه، واستطال على الله جل وعلا وعلى رسوله، وعلى دينه، واستعلى واعتدَّ برأيه.

قوله: «**واجترى**» يعني صار عنده جرأةٌ وإقدامٌ على ما ليس له بحق كما هي عادة المتكلِّمين، فهم جُرَآء على الله جلَّ وعلا، يفترون عليه ويصفونه بأوصافٍ تعالى وتقدَّس عنها.

قوله: «**وخاض في بحر الهلاك**» يعني فيما لا يَعنيه، بأن خاض في الباطل الذي هو سبب الهلاك، و«**افترى**» على الله وعلى رسوله، يعني كذب، وهذا شيء ملازم لهؤلاء.

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٠٧).

ألم ترَ اختلافَ أصحابِ النظرْ فيه وحسنَ ما نحاه ذو الأثرْ

قوله: «**أصحاب النظر**» أي: النظر العقلي الذين يزعمون أنه هو الحاكم، فهم مختلفون، لا تجد طائفةً تتفق معه، بل لا تجد اثنين يتفقان في نظرهما؛ لذا فإن الناظر من هؤلاء إذا كان ذا ذكاءٍ وفطنة وعِلم، فإنه في النهاية يصبح حائرًا لا يدري ماذا يعتقد، وهذا كثيرًا ما يقَع له، ويتبين ذلك عند الموت ـ كما قال الجويني عند موته ـ: يا أصحابي لا تشتغلوا بالكلام، واللهِ لو كنت أعلم أنه يصل بي إلى ما وصل لما اشتغلت به، وأخبركم أني ما علمت شيئًا، وها أنا ذا أموت على عقيدة عجائز نيسابور[1]، إذا كان يمكن هذا، ولكن الذي في القلوب يبقى ولا يُمحى.

وكذلك الفخر الرازي، والغزالي وغيرهم، وسائر الذين دخلوا في الكلام، أقروا على أنفسهم في الأخير أنهم ما عَرَفوا شيئًا.

وكان إمام الحرمين الجويني رَحِمَهُ اللَّهُ يتكلم في مسجد رسول الله ﷺ، وقد سُمي إمامَ الحرمين؛ لأنه جاور بمكة فترةً يُدَرِّس ويُفتي ويقرِّر مذهبه الذي يدعو إليه[2].

ذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الجويني المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلَّم في نفي صفة العلو ويقول: «كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان».

فقال الشيخ أبو جعفر: «يا أستاذ، دَعْنا من ذِكر العرش ـ يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع ـ أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قطُّ: يا الله، إلَّا وجد من قلبه ضرورةً تطلب

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٧٣).
(٢) انظر: طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ٢٦٤)، وفيات الأعيان (٣/ ١٦٨).

العلوَّ لا يلتفت يَـمْنَةً ولا يَسرة، فكيف تدفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه، وقال: حيَّـرَني الهمداني، حيرني الهمداني[1].

حيَّرَه بهذه الكلمة: «هذا أمر ضروري» أي هذه الفطرة التي فطر الله جلَّ وعلا عليها عباده: أنهم يطلبون ربَّهم من العلوِّ، وهو يقول: لا مكان له!!

المقصود أن الباطل يضمحل كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، وقال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]، فإن كان للباطل صولة، لا بد في النهاية أن يضمحلَّ وينتهي.

قوله: «**وحسن ما نحاه ذو الأثر**» يعني: حُسن الاعتقاد، وحسن السلوك، وحسن المآل لمن اتبع الآثار، التي هي كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ.

فإنهم قد اقتدوا بالمصطفى وصحبه فاقنع بهذا وكفى

قوله: «**إنهم**» أي: أهل الأثر.

قوله: «**اقتدوا بالمصطفى**» وهو النبي ﷺ القدوة الذي يجب أن يَقتدي به كلُّ مسلم، ولا يجوز أن يقلِّد المتكلِّمين أو مَن انحرف عن النهج الذي جاء به ﷺ، فإن مآلَه إلى الحيرة أو الضلال والعذاب.

قوله: «**فاقنع بهذا وكفى**» أي اقنع بالآثار، واتَّبِعْها معتقِدًا ما دلَّت عليه، ولا تلتفت إلى ما يقوله هؤلاء الذين يزعمون أن العقل معهم

(١) انظر: العرش للذهبي (١/ ١٥٣).

والواقع أنه ليس معهم عقل، وإنما معهم شُبَهٌ وأمور زعموا أنها عقليَّاتٌ وهي شبهات وتُرَّهَاتٌ وأمور لا تثبت عند تمحيصها والنظر فيها.

الباب الأول

في معرفة الله تعالى
وما يتعلق بذلك من تعداد الصفات

أول واجب على العبيد معرفة الإله بالتسديد

هذه القصيدة تشتمل على: ستة أبواب، ومقدمة، وخاتمة، وهذا هو الباب الأول.

أول ما يجب على العبد: أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله كما اتفقت على ذلك الرسل كلُّها، الذين ذكرهم الله جل وعلا لنا في كتابه، وخاتمهم محمد ﷺ، أول ما يقوله للناس: قولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذا ويقول: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلَّا الله. فإذا قالوا: لا إله إلَّا الله، عصموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحقِّها، وحسابُهم على الله**»[1]، يعني أنه يأخذ بالظاهر، أمَّا ما في القلوب، فهذه يتولَّاها الله جل وعلا.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله ﷺ: «**إنما أنا بشر**»[2] معناه التنبيه على حالة البَشَرية، وأن البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئًا إلَّا أن يُطلِعَهم الله تعالى على شيء من ذلك، وأنه يجوز عليه في أمور الأحكام ما يجوز عليهم، وأنه إنما يحكم بين الناس بالظاهر، والله يتولَّى السرائر، فيحكم بالبينة وباليمين ونحو ذلك من أحكام الظاهر مع إمكان كونه في الباطن خلاف ذلك، ولكنَّه إنما كُلِّفَ الحُكمَ بالظاهر، وهذا نحوُ قوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها

(١) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

عصموا مني دماءهم وأموالهم إلَّا بحقِّها وحسابُهم على الله»[١].

وقوله: «لا إله إلا الله»؛ يعني: أن يعتقد أن إلهه ومعبودَه هو الله وحدَه، وأن كلَّ معبودٍ غيرِ الله باطلٌ، عبادتُه باطلة.

فقولُ هذه الكلمة أولُ ما يجب على العبد، ثم الدينُ كلُّه تبعٌ لها، كما كان ﷺ يقول هذا القول، وكما كان يأمر الدعاة الذين يُرسلهم أن يكونوا كذلك؛ كما قال لمعاذ بن جبل حينما أرسله في آخر حياته صلوات الله وسلامه عليه، وقد كان بعثه إلى اليمن في السنة العاشرة، وقيل: كان في السنة التاسعة، وقد صحَّح الحافظ ابن حجر في فتح الباري أنه في السنة العاشرة في أولها[٢]، وبقي في اليمن حتى تُوفي رسول الله ﷺ، قال له: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب** ـ يعني اليهود والنصارى ـ **فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله**»[٣]، وفي رواية: «**إلى أن يوحدوا الله**»[٤]، وفي رواية: «**عبادة الله**»[٥]، وكل هذه الروايات في الصحيحين، وهذه كلُّها رويت بالمعنى؛ لأن الرسول ﷺ قال لمعاذٍ كلمةً واحدةً، ولكنها كلمات مترادفة.

فأولُ ما يجب على العبد أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

أمَّا قول المتكلِّمين: «أول ما يجب على العبد النظر»[٦] أي النظر في المخلوقات حتى يهتدي إلى معرفة الله جل وعلا؛ فهذا كلام باطلٌ، وقد يؤول إلى الكفر بالله جل وعلا؛ لأنه خلاف ما جاءت به الرسل، ولأنه

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/ ٥).
(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ٣٥٨).
(٣) أخرجه البخاري (٤٣٤٧).
(٤) أخرجه البخاري (٧٣٧٢).
(٥) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).
(٦) انظر: الإرشاد للجويني (ص٢٩).

يقتضي أن يكون عوامُّ المسلمين كفارًا، وأن يكونوا في النار؛ ولهذا قيل لأحدهم لما قال ذلك: قولُك هذا يجعل والديك كافرين! ماذا قال في الجواب؟ قال: لا تُشَنِّع عليَّ بكثرة أهل النار[1].

أيش معنى هذا؟ معناه أنه حكم عليهما بالكفر، نسأل الله العافية!

ولأن هذا أمرٌ فيه صعوبة لا يستطيعه كل إنسان، يعني أن يستدل على وجود الله وعلى وجوب عبادته بالمخلوقات، وهي تدل على توحيد الربوبية، لا تدل على توحيد العبادة إلَّا من باب اللزوم، وباب اللزوم قد لا يكون مفهومًا؛ لأنه يلزم من كون الإنسان يُقِرُّ بأن الله ربُّه، لزم من ذلك أن يعبده وإلَّا كان كافرًا كما قال الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فصار الخلق موجبًا للعبادة، وهذا معنى اللزوم؛ أي مُلزِمٌ للعبد أن يعبد الله جلَّ وعلا وحدَه ولا يعبد غيره.

فأول ما يجب على المكلَّف أن يشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، فالطفل الذي نشأ في بلدٍ مسلم وبين مسلمين، ثم استمر على هذا، هل يجب عليه إذا بلغ أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويؤمن ويكون هذا مبدأ إيمانه؟

الجواب: لا يلزم؛ لأنه محكوم بإيمانه وإسلامه منذ وُلد، فهو على الفطرة، وتربَّى على ذلك، إلَّا أن تغيُّرَ فِطرَتِه يُغَيِّرُ نهجَه وسلوكه كما يحدث الآن في كثير من الناس؛ صاروا يتربون على ما يشاهدونه من الأفلام الخبيثة الكفرية التي يرسلها اليهود والنصارى وأعداء المسلمين فصارت في كل بلد.

فالمقصود أن أول ما يجب على العبد هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وليس النظر كما يقولون، وبعضهم يقول: أول

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٣٣٢).

ما يجب على الإنسان الشك[١].

وهذا من أعجب الأشياء، كيف يكون الشك واجبًا؟

يقول: حتى يدعوه الشك إلى النظر! إذا شك نظر، ثم إذا نظر عَرَفَ! ولو كان الأمر هكذا ما كان لإرسال الرسل معنى، بل هو موكولٌ للنظر، والنظر كلٌّ يستطيعه، فيكون الواجب عليه ما في عقله، وما يدعوه إليه عقله.

وقوله: «**معرفة الإله**» قد يكون قصده بذلك ما يقوله المتكلمون، وقد يقصد به ما هو أعمُّ من هذا، يدخل فيه معرفةُ حقِّه الذي هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، حقه على العباد، وأنه يجب أن يكون هذا أولَ ما يتعرف عليه ويعمل به، ويدخل في ذلك معرفتُه بأسمائه وصفاته، وما تَعرَّفَ به إلى عباده من الأسماء والصفات، وكذلك أفعالُه جلَّ وعلا ومخلوقاته.

وقوله: «**بالتسديد**» يعني أن يكون على الصواب وعلى الحق، والسير على النهج السوي الذي ليس فيه خوفٌ من هلاكٍ ولا من عدوٍّ.

بأنه واحدٌ لا نظيرَ له ولا شِبْهَ ولا وزيرَ

هذا أيضًا محتمل أن يقصد أنه واحدٌ بحقِّه وإلهيته جلَّ وعلا، أو يُقصد أنه واحد بذاته ـ كما يقوله المتكلمون ـ واحد كذلك بأفعاله، وواحد أيضًا في مخترعاته ومخلوقاته، هذا كلُّه توحيد الربوبية، ولا يُجدي شيئًا؛ يعني أن الإنسان إذا عَرَفَ ذلك لا يكون مسلمًا حتى يشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله.

وقوله: «**لا نظير له ولا شبه ولا وزير**» النظير هو المثل، أي: ليس له مثل لا في ذاته جلَّ وعلا، ولا في أوصافه، ولا حتى في حقِّه الذي أوجبه على عباده، يجب أن يكون خالصًا له وليس لأحد من الخلق شيء منه.

---

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٣٥٠).

وقوله: «**ولا شِبْهَ**» فيه شيء من الإجمال، فكلمة «شِبْه» والتشبيه وردت كثيرًا عند المتكلمين وتعدَّت إلى كتب أهل السنة، والواقع أن هذا لم يأتِ لا إثباتُه و لا نَفْيُه في كتاب الله ولا في أحاديث رسوله ﷺ؛ لأنه فيه إجمال، وفيه أمور قد تكون حقًّا وقد تكون باطلًا.

وقوله: «**ولا وزير**» الوزير: المعاون والمساعد، فالله جلَّ وعلا هو المدبِّر وحدَه، وهو الخالق وحده، وهو المتصرِّف وحده، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه، لا يحتاج إلى أحد، وقد خلق ملائكته لعبادته كما خلق الجنَّ والإنس لعبادته، تعالى وتقدَّس.

صفاتُه كذاتِه قديمه أسماؤه ثابتة عظيمه

قوله: «**صفاته كذاته قديمه**» سبق أن القِدَمَ يحتمل أن يكون قِدَمًا نسبيًّا، والقدمُ النسبي لا يجوز أن يوصف الله جلَّ وعلا به.

ويحتمل أن يكون بمعنى الأول الذي ليس قبله شيء.

والكلام إذا كان فيه احتمال، وجب أن يُفسَّر ويقيَّد ولا يطلق إطلاقًا هكذا؛ لأن إطلاقَه يكون مشتملًا على الحق والباطل.

فالصفات ـ كما سبق ـ أنها ما يتعلق بالذات ويقوم بها، والأسماء التي تدل على المسمَّى، وكلاهما يكون خاصًّا، ولا فرق بين كون ذلك لله جلَّ وعلا أو للمخلوق، فصفاتُ المخلوق تخصُّه واللهُ لا يشاركه فيها، وكذلك صفات الله تخصُّه والمخلوق لا يشارك اللهَ فيها.

والصفات تابعة للذات، فكما أنه ـ جلَّ وعلا ـ أَزَلِيٌّ بذاته، غنيٌّ بذاته، فكذلك صفاتُه فهي أزلية، وهي كذلك خاصة به ـ تعالى وتقدَّس ـ لا يشاركه فيها أحدٌ من خلقه.

وأمَّا أسماؤه ـ جلَّ وعلا ـ فهي ثابتة عظيمة، وخاصَّةٌ به، يجب أن يُوحَّد بها، ومعنى التوحيد فيها: أن يُعتقد أنه واحدٌ فيها وأنه لا يشاركه شيء، ثم يَتبع ذلك اعتقادُ ذلك والعملُ به، ودعاؤه بها كما أمر الله ﷻ.

وقوله: «**ثابتة عظيمة**» يعني عظيمة المعاني؛ لأن اللفظ لا بدَّ له من معنى، وليست أسماؤه ﷻ مجرَّدَ ألفاظٍ كما يقول من يقول.

لكنها في الحق توقيفيه لنا بذا أدلةٌ وفِيَّه

قوله: «**لكنها في الحق توقيفية**» التوقيفي: مِن وَقَفَ؛ ما أتى به الشرع وليس لأحدٍ الزيادة عليه ولا الإنقاص منه، ولا مجال للرأي فيه[1]؛ يعني نقف عند النصوص التي جاءت فقط ولا نبتدع شيئًا من عند أنفسنا نسمي الله جلَّ وعلا به، أو نصفه به؛ لأن هذا قولٌ على الله بلا علم، وقد توعَّدَ الله جلَّ وعلا الملحدين في أسمائه؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الشنقيطي رحمه الله: «هدَّد تعالى في هذه الآية الذين يُلحدون في أسمائه بتهديدين:

الأول: صيغة الأمر في قوله: ﴿وَذَرُوا۟﴾؛ فإنها للتهديد.

والثاني: في قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»[2].

وقوله: «**لنا بذا أدلة وفية**» أي أنَّ لنا على أن أسماء الله ﷻ توقيفية أدلةً من الكتاب والسنة، وهذا أمر واضح، فيجب علينا أن نقف على ما جاء في كتاب الله وسُنة رسوله، مع فَهم معناها، وإثبات ما دلَّت عليه من المعاني اللائقة بعظمة الله وجلاله.

ثم بدأ المؤلف رحمه الله يذكر شيئًا من الصفات والأسماء.

له الحياة والكلام والبصر سمعٌ إرادةٌ وعلمٌ واقتدر

قوله: «**له الحياة والكلام والبصر**» يعني أنه موصوف بالحياة الكاملة

---

(١) معجم لغة الفقهاء (ص١٥١).
(٢) أضواء البيان (٢/ ٤٥).

كما قال جل وعلا: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، فهو حيٌّ وحياتُه ليس لها مبدأ وليس لها منتهى، وليست مقيدة بشيء؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لأن النوم أخو الموت، والسِّنة: مبادئ النوم[١]، فهو جلَّ وعلا لا يتطرق إليه شيء من النقص، فحياتُه كاملة؛ ولهذا هي كملت حياة المخلوق، وهي حياة تليق بالمخلوق أن لا ينام، فقد سُئل رسول الله ﷺ: أينامُ أهلُ الجنة؟ قال: «**النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون**». وفي رواية: «**لا يموتون**»[٢]، يعني أن النوم نقصٌ، وإن كان في هذه الحياة الدنيوية أمرًا ضروريًا لا بد منه، فالإنسان إذا لم ينم يموت، فهو مخلوق ضعيف وناقص وفانٍ.

والمقصود أن الله جلَّ وعلا حيٌّ حياةً كاملة تستلزم صفات الذات كلَّها.

قوله: «**والكلام والبصر**» يعني أنه يوصف بأنه يتكلَّم وأنه يُكلِّم، وسيكلم عباده، ويكلم مَن يشاء.

وهذه الصفة اختلف فيها الناس كثيرًا؛ فمنهم من قال: إن الكلام مخلوق وهم الجهمية والمعتزلة[٣]، وبعض الأشاعرة قولهم يؤول إلى هذا؛ لأنهم يقولون: الكلام هو المعنى القائم بذات الرب جل وعلا[٤]، أي أن الكلام هو المعاني الموجودة في النفس، ويجعلون النطق بالحروف والأصوات تعبير عن الكلام النفسي، فيزعمون أن الله يتكلم بكلامٍ نفسي قائم بذاته جلَّ وعلا، وأنكروا الحرف والصوت؛ فالقرآن ـ

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الاوسط (٩١٩)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٩٠)، والبيهقي في الآداب (٦٧٧)، وشعب الإيمان (٤٤١٦).

(٣) انظر: النبوات لابن تيمية (١/ ٥٨٦)، مجموع الفتاوى (٦/ ٥١٨).

(٤) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة لابن أبي الخير (٢/ ٥٤٤).

عندهم ـ عبارة عن كلام الله، وليس هو كلام الله! فمَن عبَّرَ عمَّا في نفس الله جل وعلا؟! بل هذا نقصٌ وباطل، فاللهُ يتكلَّم كلامًا حقيقيًّا يُسمع منه، ويكون مشتملًا على الحروف والصوت، وهذا الكلام المعروف إن لم يكن اشتمل على الحروف والصوت فلا يسمى كلامًا[١].

قوله: «**والبصر**» يعني أنه موصوف بأن له بصرًا يُبصر به، والبصر ما يدرك المبصرات، يعني المرئيَّات، وكذلك السمع الحقيقي وهو ما يدرك به الأصوات المسموعات.

وقوله: «**سمع إرادة وعلم اقتدر**» يعني أن له سمعًا وإرادة حقيقية، وكذلك علم حقيقي، واقتدار حقيقي.

وهذه هي سبع الصفات التي يقولها الأشاعرة، وما عداها يجب أن يُؤوَّل أو يفوَّض، والتفويض أشر من التأويل، فالحياة والكلام والبصر والسمع والإرادة والعلم والقدرة؛ هذه الصفات التي يقولون: اجتمع عليها العقل والسمع، عملوا بها وما عداها يُؤوَّل.

وقوله: «**إرادة**» الإرادة تعني ما يريده مما يشاء، والصحيح أن له في كل مراد إرادةً، وليست إرادته واحدة كما يقول الأشاعرة[٢].

وقوله: «**وعلم**» يعني له علم قائم بذاته جلَّ وعلا، يدرك به المعلومات وإن دقَّت، كما قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وعِلمُه محيطٌ بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

قوله: «**واقتدر**» يعني أن له قدرةً يقوم به، ويكون قادرًا قويًّا على كل شيء، ولا يمتنع عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا

---

(١) انظر: رسالة السجزي في الرد على من أنكر الحرف والصوت (ص٤٧).
(٢) انظر: منهاج السنة لابن تيمية (١/ ٣٨٠).

فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

بقدرةٍ تعلقتْ بممكنِ كذا إرادةٌ فَعِ واستَبِنِ

هذا الذي ذكره على ضوء ما يقوله المتكلمون «**قدرة تعلقت بممكن**»، قدرته تعلقت بكل شيء، ولكن المستحيل لا يسمى شيئًا، والممتنع لذاته لا يسمى شيئًا، ليس شيئًا حتى يُحترز منه، بل هو عدم.

وقوله: «**كذا إرادة فَعِ واستبن**» يعني أن الإرادة كذلك تعلَّقت بممكنٍ مثل القدرة التي قيدها بهذا، ولكن الإرادة جاءت مطلقة كما قال جلَّ وعلا: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]؛ أي كلَّما أراد شيئًا فَعَلَه تعالى وتقدس، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فلا يجوز تقييد الإرادة بأمورٍ متخيَّلة.

والعلم والكلام قد تعلقا بكل شيء يا خليلي مطلقا

وهذا حق، فهو يعني أن علم الله وكلامه ﷻ وكذلك قدرته تعلَّقت بكل شيء؛ فعلمُه ﷻ محيطٌ بكل شيء، وكلامه جل وعلا متعلق بمشيئته بحيث أنه إذا شاء تكلَّم، وإذا شاء أن لا يتكلم لا يتكلم، وهذا هو الكلام المعين، ولكن جنس الكلام أزلي، وأمَّا أفراده فهي حادثة، تحدث شيئًا بعد شيء، ولهذا وصف الله جل وعلا القرآن بأنه محدَث: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] سمَّاه حديثًا، والحديث الذي جاء بعدما تقدَّمَه شيء من نوعه.

وجاءت نصوص كثيرة في كون الله يتكلَّم وأنه سيتكلم، ويخبر الرسول بذلك بألفاظ الماضي التي تدل على التحقيق كأنها وقعت وهي لم تقع، وهذا يكون لأهل الجنة وللأفراد وغيرهم.

وقد جاء في الصحيح: «**أن آخر من يخرج من النار من أهل التوحيد الذين يدخلون النار، رجل يجعل وجهه إلى النار يخرج منها ولكنه**

لا يستطيع يصرف وجهه، فيدعو ربه، فيقول: يا رَبِّ، اصرف وجهي عن النار، قد قَشَبَني رِيحُها وأحرقني ذَكَاؤها، فيقول: هل عسيت إن فُعل ذلك بك أن تسأل غيرَ ذلك؟ فيقول: لا وعِزَّتِك، فيُعطي اللهَ ما يشاء من عهد وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار.

فإذا أقبل به على الجنة، رأى بهجتها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب قَدِّمني عند باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهود والميثاق، أن لا تسأل غير الذي كنت سألت؟

فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقِك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزَّتِك، لا أسأل غير ذلك، فيعطي ربَّه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها، فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت.

فيقول: يا رب أدخلني الجنة، فيقول الله: ويحك يا ابن آدم، ما أغدرك! أليس قد أعطَيْتَ العهود والميثاق، أن لا تسأل غير الذي أعطيت؟ فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فيقول: تَمَنَّ، فيتمنى حتى إذا انقطع أُمْنِيَّتُه، قال الله ﷻ: من كذا وكذا، أقبل يُذَكِّرُه ربُّه، حتى إذا انتهت به الأمانيُّ، قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه»[1].

وهذا أدنى أهل الجنة، هذه محاورة كلام كثير مع فرد وهو أدنى أهل الجنة، فكيف أعلاهم؟! وكيف من هو مقدَّمٌ فيها؟! فالله ﷻ يكلِّم عبادَه، كلمهم وسيتكلم ويخبر بهذه أنه قال، ويقول بألفاظ الماضي لتحقق الوقوع؛ إذ لا بد أن يقع ما أخبر به ربُّ العالمين، وكذلك ما أخبر به الرسول ﷺ عن ربِّه جلَّ وعلا.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

وسمعه سبحانه كالبصرِ بكل مسموع وكلِ مُبْصَرِ

يعني أنه له جل وعلا سمع يدرك به المسموعات، كامل لا يفوته شيء، وهو كالبصر، يعني إحاطته بكل مسموع، فالسمع يدرك به المسموعات كما أن البصر يدرك به المبصَرات؛ لهذا قال: بكل مسموع وكل مبصَر، يعني أنه عام مطلق، وهكذا في صفاته جلَّ وعلا.

فصل في مبحث القرآن

وإن ما قد جاء مغ جبريل ... من محكم القرآن والتنزيل
كلامه سبحانه قديمُ ... أعيا الورى بالنص يا عليم

قوله: «**كلامه قديم**» فيها نظر؛ فالقرآن لا يوصف بأنه قديم، بل أخبر الله جل وعلا أنه محدَث، ولكن هذه طريقة المتكلمين يصفونه بذلك يقولون: كلامه قديم أزلي، ومعنى ذلك أنه تكلم ثم لم يعد يتكلم تعالى الله وتقدس، فهو تكلم وكلم من يشاء من رسله ويكلم ملائكته وسيتكلم، يكلم عباده وهو يحاسبهم وهو الذي يتولى الحساب، فإذا كان لا يتكلم فيما بعد، فكيف يحاسبهم؟! فقد قال المصطفى ﷺ: «**ما منكم أحدٌ إلَّا سيُكلِّمُه ربُّه ليس بينه وبينه تُرجمان ولا حجاب يحجبه، فينظر أيمنَ منه فلا يرى إلَّا ما قدَّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلَّا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلَّا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشِقِّ تمرة**»[(١)].

فالله جل وعلا صفاتُه كاملة، والكلام صفةُ كمالٍ؛ فالذي يتكلَّم أكمل ممن لا يتكلم، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والسلفُ قالوا: لم يزل الله تعالى متكلِّمًا إذا شاء. فإذا قيل: كلام الله قديم؛ بمعنى أنه لم يَصِرْ متكلِّمًا بعد أن لم يكن متكلِّمًا، ولا كلامُه مخلوق، ولا معنًى واحدٌ قديمٌ قائم بذاته؛ بل لم يزل متكلِّمًا إذا شاء؛ فهذا كلام صحيح. ولم يقل أحد من السلف إن نفس الكلام المعين قديم»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٥٦٧).

يقولون: الكلام لا بد أن يكون بأدوات، الأدوات: اللسان، الشفتان، الحَنْجَرة، اللَّهَاة[١]، الأحبال الصوتية، وغير ذلك، وهذا جائز على المخلوق الضعيف، ولا يجوز أن نتصور أن في الله هذه الأمور؛ لأن هذا تشبيه، وهذا ـ كما سبق ـ لأن التشبيه ارتسم في أذهانهم، ثم بناءً على ذلك شبَّهُوا أولًا ثم عطَّلوا ثانيًا، عطلوه عن الصفات التي تقوم به تعالى وتقدس.

فالذي جاء به جبريل هو الوحي مطلقًا، يعني القرآن والأحاديث؛ لأن جبريل عليه السلام هو الذي يتولَّى إبلاغ رسالة الله جلَّ وعلا إلى رُسُلِه، فهو الواسطة بين الله وبين الرسل، كما أن الرسل هم الواسطة بيننا وبين ربِّنا تعالى وتقدس؛ قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن الإيمان به ـ أي النبي ﷺ ـ الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وحلاله وحرامه»[٢].

قوله: «**كلامه سبحانه قديم**» هذا الإطلاق خطأ، لا يجوز أن نقول: كلامه سبحانه قديم، وعرفنا فيما مضى معنى القديم أنه بالنسبة إلى ما جاء جديدًا، فهو يعني صفة نسبية لما يُشاكلها، وهذا لا يجوز أن يدخل في صفات الله جل وعلا.

والله عز وجل يتكلم حقيقةً، وقد جاء التصريح بهذا، فالله سبحانه أخبرنا أنه ينادي، يقول الله جل وعلا: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] هذا خطاب لآدم وزوجه، وهذا النداء من أبلغ الأدلة على إثبات الكلام؛ ولهذا اتُّخذ له حروف خاصة: «يا»، و«أيا»، و«أي»، و«الهمزة»، و«هيا»، و«وا»[٣]،

---

(١) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم. المصباح المنير (٢/ ٥٥٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٧٠).
(٣) انظر: المفصل في صنعة الإعراب (ص٤١٣).

يعني الحروف التي فيها المد؛ لأنه يحتاج إلى مدِّ الصوت.

كذلك نادى موسى، ونادى من نادى من عباده، وكذلك ينادي: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] وجاء النداء في إحدى عشرة آية من كتاب الله جل وعلا، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: إنها في تسع آيات في كتاب الله، يقول في النونية:

وأَتَى النِّدَا في تسع آياتٍ له وصفًا فراجِعْها من القرآن[1]

ولكنه لم يعتبر قوله جل وعلا في سورة القصص: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

فقوله: ﴿نُودِيَ﴾ جاء بلفظ البناء المجهول، ولكن بعدها: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، أهل الباطل يقولون: النداء لا يجوز أن يوصف الله به، وكذلك يقولون: إن موسى سمع الكلام من الشجرة، فهل الشجرة قالت: إني أنا ربك؟ أو إني أنا الله لا إله إلا أنا؟!

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلو كان النداء مخلوقًا في الشجرة لكانت هي القائلة: إني أنا الله. وإذا كان ما خلقه الرب في غيره كلامًا له، وليس له كلامٌ إلَّا ما خلقه، لزم أن يكون إنطاقه لأعضاء الإنسان يوم القيامة كلامًا له، وتسبيحُ الحصى كلامًا له، وتسليمُ الحَجَر على الرسول كلامًا له، بل يلزم أن يكون كلُّ كلام في الوجود كلامَه! لأنه قد ثبت أنه خالق كل شيء»[2].

وبعضهم يقول: إن الله خلق الكلام في الهواء! فهل سمع موسى من الهواء؟! وهل قال الهواء له: أنا ربك؟! كلام باطل!!

---

(١) نونية ابن القيم (ص٤٥).

(٢) منهاج السنة (٥/ ٤٢٥).

ما الذي دعاهم إلى القول بهذا؟

دعاهم إلى هذا: الهروب من التشبيه، وهربوا من التشبيه؛ لأنهم لم يعرفوا كلامَ الله، وإنما يعرفونه هو ما يعرفون من أنفسهم أن ما يلزم مَن يتكلم أن يكون له فم ولسان ويكون له شفتان.. إلى آخره.

وقد أخبرنا ربُّنا جلَّ وعلا أن أشياء تتكلم بدون هذه الأمور، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢٣]، يعني: أهلككم ووضعكم في جهنم.

فالذي لا يصف ربَّه جلَّ وعلا بالكلام أرداه هذا المعتقد وأهلكه.

كذلك يخبرنا رسولنا ﷺ بأنه يعرف حجرًا في مكة كان يسلم عليه قبل النبوة[1]، كيف تكلَّم الحجر؟! كذلك سمعوا تسبيح الحصى في يده ﷺ[2] تقول: سبحان الله سبحان الله! فهل الحجر له لسان وله فم؟!

ومن المشهور أنه ﷺ لـمَّا اتَّخذ منبرًا من الطرفاء[3] كان أولًا يخطب إلى جذع نخلة، لأنه ﷺ لما قدم المدينة، وأمر ببناء المسجد، فقال: «**يا بني النجار ثامنوني**». فقالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، فأمر بقبور المشركين فنُبِشَت، ثم بالخِرَب فسُوِّيَت، وبالنخل فقُطِع[4].

فنبش القبور وأُزيلت، وقطع النخل، وجعل سقفه من عريش،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

(٢) انظر: السنة لابن أبي عاصم (١١٤٦).

(٣) الطرفاء: شجر، ومنه الأثل، واحدتها طرفاءة وطَرَفَة. القاموس المحيط (ص٨٣١).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٦٨).

والجذوع أعمدة، فكان يستند إلى جذع من هذه الجذوع عند الخطبة قبل أن يتخذ المنبر، فلما اتخذ المنبر صار ذلك الجذع يحن مثل حنين الناقة إذا فقدت ولدها، حتى أتاه رسول الله ﷺ فوضع يده عليه فسكن[١]، مثل الصبي إذا بكى ثم التزمته أُمُّه يهدأ حتى يسكت.

وقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه، لم يَزَلْ هكذا إلى يوم القيامة**»[٢]، فإذا كان مثلُ هذا الجذع الهامد يُسمع صوته، فكيف بهؤلاء يقولون: الكلام لا يمكن إلا ممن له لسان وشفتان وغيرها؟! كل هذا رأيٌ ونظر قاصر منهم، ولم يقولوا بمقتضى الأدلة التي جاءت عن الله وعن رسوله ﷺ، وهذه المسألة فيها ابتلاء وامتحان وفِتَنٌ عظيمة، ولا يزال الناس يخالفون فيها إلى الآن.

فالأشاعرة يقولون: الكلام الذي يوصف الله جل وعلا به هو المعنى الذي يقوم بالنفس[٣]؛ قال شيخ الإسلام: «وقد أنكر الناس عليهم أمورًا: إثبات معنىً واحد، هو الأمر والخبر، وجعل القرآن العربي ليس من كلام الله الذي تكلم به، وأن الكلام المنزَّل ليس هو كلام الله، وأن التوراة والإنجيل والقرآن إنما تختلف عباراتها، فإذا عبر عن التوراة بالعربية كان هو القرآن، وأن الله لا يقدر أن يتكلم، ولا يتكلم بمشيئته واختياره»[٤].

هذا شيء لا يُستساغ وهو مِن أبطل الباطل، يُعجزون الله أنه يتكلم تعالى الله وتقدس! فكيف يرسل الرسل؟ وكيف يحاسب الناس؟ وكيف يستمع لهم وكيف يخاطبهم؟ ومقتضى ذلك أنهم عطلوا الله جلَّ وعلا من

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٥٦).
(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٤٧٢).
(٣) انظر: المواقف للإيجي (٣/ ١٢٩).
(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١١٤).

كماله الذي هو مختص به تعالى وتقدَّس دون عباده.

وقوله: «**أعيا الورى بالنص يا عليم**» يعني أن كتابه مُعجِزٌ واشتمل على الإعجاز فقد عجز الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وأعجز العرب ـ وهم أهل البلاغة ـ عن أن يأتوا بمثله، فهو لا يُشبه كلامَ البشر، بل عجزوا بأن يأتوا بمثل أقصر سورة.

وليس في طوق الورى من أصله أن يستطيعوا سورة من مثله

«**الطوق**» الطاقة[1].

«**الورى**» الخلق[2].

والمعنى أن هذا الأمر خاص به، وهو دليل على أن كلام الله جل وعلا لا يُشبه الكلام، وكما أن أفعاله جلَّ وعلا لا تُشبه أفعالَ الخلق وأوصافُه كذلك، والكلام صفةُ كمالٍ، فالذي يتكلَّم أكملُ ممن لا يتكلم، فإذا لم نصفه بأنه يتكلم فبماذا يوصف؟ لأن المتضادين لا يجتمعان ولا يرتفعان، فالكلام ما الذي يضادُّه؟ الذي يضاد الكلامَ الخرسُ، فإذا كان لا يتكلم وُصف بأنه أخرسُ ضرورةً، لأنه لا يجتمع الكلام والخرس ولا يرتفعان.

وهذا البيت يقصد به القرآن، فهو معجز بلفظه ومعناه، وقد تحدى الله تعالى الإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا.

(١) مختار الصحاح (ص١٩٤).
(٢) مختار الصحاح (ص٣٣٧).

فصل
في ذكر الصفات التي يثبتها لله تعالى أئمةُ السلف

وليس ربنا بجوهر ولا عَرَضٍ ولا جسمٍ تعالى ذو العلى

«**الجوهر**» هو ما قام بنفسه[١]، و«**العرض**» ما لا يقوم إلا بغيره[٢].

والأشياء كلها لا تخلو من هذا أو ذا.

وهذا من أبطل الباطل، فالله جلَّ وعلا لا يقال: ليس بجوهر ولا عرض، ولا يوصف الله جل وعلا بذلك، ولكن تحت هذا إبطال صفات الله ونفيُها وتعطيلُه منها، لماذا؟

لأنهم جعلوا مثل اليد والوجه والرِّجل جوهرًا، وهكذا صفات الذات، وجعلوا الحياة والعِلم والقدرة أعراضًا فنفوها.

فإذا قال لك المتكلِّم ـ مثلًا ـ: ليس ربُّنا بجوهر ولا عرض! معناه أنه ينفي صفات الله كلَّها ولكن يأتون بهذا الكلام المبتدَع المخترَع الذي ليس له أصلٌ لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله؛ ليدرؤوا بذلك عنهم التبعات التي تقوم عليهم من كونهم يطالبون بالإيمان، وكونهم مُبطلين لصفات الله جلَّ وعلا، جاؤوا بهذه المبتدعات التي لا يجوز إطلاقُها ولا نفيُها إلَّا بعد الاستفسار.

فإذا قال: ليس بجوهر، نقول له: ماذا تريد بقولك: ليس بجوهر؟

---

(١) انظر: المعجم الفلسفي لجميل صليبا (١/ ٤٢٤).

(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء (ص٧٨).

يعني ليس كالمخلوقات؟ إذا كنت تريد هذا فهذا حق، ولكن لا يجوز أن تقول: ليس بجوهر، بل يجب أن تقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ كما قال الله جلَّ وعلا.

وقولك: ليس بعَرَض، ماذا تريد؟ هل تريد أنه لا تعرض له الآفات ولا يكون له جل وعلا شيء من الناقصات؟ إذا كنت تريد هذا فهذا حق، ولكن يجب أن تعبر عن هذا بالعبارة الصحيحة.

أمَّا إن كنت تريد ـ مثلًا ـ أنه ليس له سمع ولا بصر، ولا علم ولا قدرة ولا إرادة ولا غير ذلك؛ فهذا باطل لفظًا ومعنًى، فيُرَدُّ.

المقصود أن الله لا يوصَف إلَّا بما وصف به نفسه، وهذا وصفٌ له بغير ما وصف به نفسه ولا وصفه به رسوله ﷺ، فأين تجد أن الله ليس بجوهر ولا عرض؟ ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فلماذا وهو مؤلِّف يقول: إنه أثري وأنه سلفي ثم يأتينا بهذا الكلام الباطل الذي ينتحله المتكلمون؟!

وكذلك قوله: «**ولا جسم**» ماذا يريد بقوله: ليس بجسم؟

إذا كان يريد أنه ليس كالأجسام، وليس مؤلَّف من لحم ودم وعظم وما أشبه ذلك فهذا حق، ولكن يجب أن تقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ولا تقول: ليس بجسم؛ لأن الجسم لم يأتِ نفيُه ولا إثباته مثل الكلام السابق، والله لا يُوصف إلَّا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولفظ الجسم والجوهر ونحوهما لم يأتِ في كتاب الله ولا سُنة رسوله ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسائر أئمة المسلمين التكلُّمُ بها في حق الله تعالى لا بنفيٍ ولا إثبات»[1].

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣١٣).

أمَّا إذا كان يريد ما يريده المتكلِّمون بأنه جسم مثل الجسم عندهم يقولون: ما شغل مكانًا يكون جسمًا[١].

فبعضهم يقول: الجسم ما صحت رؤيته، هذا عام، ومنهم من يقول: الجسم ما صحت الإشارة إليه أن تكون هنا أو هناك أو فوق أو تحت فهذا عام، ثم يقول: ليس بجسم يعني أنه لا وجود له، والجسم المعروف في اللغة البدن[٢]، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] الذي يتكون منه ويتألف؛ ولهذا يقولون: إنه جلَّ وعلا ليس له أجزاء وليس له أبعاض[٣]، وليس كذا وكذا، كل هذا من الباطل، والخوض في الباطل في هذا خوض في أسباب جهنم والبعد عن الله جل وعلا، نسأل الله العافية!

وقوله: «**ذو العلا**» هذا حق أنه صاحب العلا، والعلوُّ له أقسام ثلاثة:

الأول: علو الذات؛ فهو مستوٍ على عرشه، كما سيأتي.

الثاني: علو القَدْر، ولكن عند المؤمنين به، الذين آمنوا به على ما وصف به نفسه وليس عند هؤلاء من المتكلمين، فهؤلاء ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٤].

الثالث: علوُّ القهر، وهو علو مطلق، فهو قد قهر خلقه، وقهر كل شيء، فهو القاهر فوق عباده.

والمتكلمون لم يُثبتوا لَهُ سبحانه إلَّا علوَّ الْقدر وعلو الْقَهْر، وَنَفَوْا علوَّ الذات، تعالى الله عمَّا يقولون، فلا يقولون: هو فوق عباده، ولا يُقرون بذلك، وإذا أقروا بذلك قالوا: فوق عباده بالقهر لا بذاته[٤].

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٣٥٠).
(٢) انظر: لسان العرب (١٢/ ٩٩).
(٣) انظر: معارج القبول للحكمي (ص٣٧٧).
(٤) انظر: تفسير الرازي (٢٠/ ٢١٨).

كل هذه الألفاظ ألفاظ بدعية جاء بها المتكلمون؛ ليغطوا ضلالهم ويتستروا بها عمَّن يعرف الحق، فإذا سمعهم الإنسان الذي لا يعرف مقاصدهم ظن أنهم ينزِّهون الله، وهم في الواقع يعطلون صفات الله جلَّ وعلا.

سبحانه قد استوى كما ورد من غير كيف قد تعالى أن يُحَد

قوله: «**استوى**» الاستواء معلوم، قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**قولهم: «الاستواء معلوم»**: أي أن معنى الاستواء معلوم في اللغة، وهو ههنا بمعنى العلو والارتفاع»[(١)].

ولم يأتِ الاستواء إلَّا مقيدًا بالعرش، فلا يجوز أن يطلق هكذا، ولكن لما كان الشعر فيه صعوبة تسومح فيه ما لم يتسامح في غيره[(٢)]، فالمؤلف قصد هنا استوى على العرش، فاستوى بهذا الإطلاق لا يجوز ولا يصلح، ولهذا قال: كما ورد، ولكنه قيده بقوله: «**كما ورد**»، يعني كما جاء في كتاب الله أنه استوى على عرشه.

وقوله: «**من غير كيف قد تعالى أن يحد**» سبق أن قلنا: إن الكيف مجهولٌ للخلق، ولا يُطمع في معرفته؛ لأن الكيف يتطلب المشاهدة وهذا غير ممكن، والله لا يحاط به، إذا رؤي لا يحاط به، وأقل شيء أن يكون له مثيل يقاس عليه، وهذا ممتنع، فالله جل وعلا لا يُشاهَد وليس له مثل فيقاس عليه، إذًا فلا مطمع في معرفة الكيفية.

وقوله: «**تعالى أن يحد**» ماذا يقصد بالحد؟ إن كان يقصد أنه لا يعرف العباد له حدًّا أو لا يحدونه؛ لأنه جلَّ وعلا أكبر من أن يحاط به: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠] نقول: هذا حق، أمَّا إن كان يقصد عدم

(١) العرش الذهبي (١/ ١٩٠).
(٢) انظر: همع الهوامع (٣/ ١٧٩).

الاستواء، ونفي علوه، فهذا باطل لا يجوز؛ لذا فإن هذه الكلمة جاء عن السلف نفيُها وإثباتها، فالذي نفاها قصد بذلك علم الخلق، أي أن علمهم لم يدرك حدًّا لله، والذي أثبتها أراد بذلك أنه مستوٍ على عرشه فوق خلقه.

ولهذا قيل للإمام عبد الله بن المبارك: كيف نعرف ربنا؟ قال: مستوٍ على عرشه. قيل: بحدٍّ؟ قال: نعم بحد[١].

ولما بلغ ذلك الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «وهو كذلك عندنا»[٢]، يعني أنه ليس مختلطًا في عباده جلَّ وعلا، بل هو عالٍ عليهم فوقهم، فوق عرشهم.

فإذًا قوله: «**تعالى أن يحد**» ليس على إطلاقه، بل يجب أن يقيد، وكذا الأمور التي يؤاخذ عليها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا.

فلا يحيط علمنا بذاته كذاك لا ينفك عن صفاته

هذا حق، فعِلمُ الخلق لا يحيط بالله جلَّ وعلا، والإحاطة: هي الإدراك من جميع الجوانب، ونفيُ الإحاطة لا يقتضي نفيَ الرؤية، فقد يُرى وهو لا يحاط به كما قال الله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٢]، فنفى الإدراك مع الرؤية وهذا في المخلوق، والله جلَّ وعلا أكبر وأعظم من كل شيء فلا يحيط علمُنا بذاته، فهو سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فكما أنه سبحانه لا تدركه الأبصار فكذلك علمنا، فالإحاطة هنا ممنوعة، فلا أحد يحيط به علمًا تعالى وتقدس.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٢١٧).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (١١٣)،والخلال كما في العرش للذهبي (ص٢٥٢) .مراجعة

وقوله: «**كذاك لا ينفكُّ عن صفاته**» يعني: أن الصفات قائمة بالموصوف لا تفارقه، وهذا ـ كما سبق ـ لكل موصوف حتى الجماد، فمثلًا الحصى له صفات: صفة الصلابة، واليبوسة، وقد تكون الثقل وغير ذلك، فهل تفارقه هذه الصفة؟ لا تفارقه.

وكذلك المخلوق، فصفات الله جل وعلا خصائص له، وهي قائمة بذاته أزلية أزليَّته تعالى وتقدس، والموصوف بصفاته تعالى وتقدس.

فكل ما قد جاء في الدليل فثابت من غير ما تمثيل

يعني كل ما دلَّ كتاب الله جلَّ وعلا عليه من صفاته سبحانه وأسمائه، أو جاء في حديث الرسول ﷺ وجب أن نُثبته من غير تمثيل، يعني لا نمثله بشيء من خلقه، وهذا حق.

من رحمة ونحوها كوجهه ويده وكلُّ ما من نهجه

يعني مِن نهج هذا الشيء، سواءٌ كانت صفاتِ ذاتٍ أو صفات أفعال.

قوله: «**من رحمة**» يعني أن رحمته يجب أن تكون على ما يليق بعظمته جلَّ وعلا، وليست الرحمة هي إرادة الإحسان أو العطف، ولا هي الإحسان كما يقوله المؤولة الذين يؤولون رحمة الله ورضاه وغضبه وغير ذلك.

ولهذا قال: «**ونحوها**» يعني ونحو الرحمة من الرضا والغضب وكذلك المقتُ وغير ذلك مما يتَّصف الله جلَّ وعلا به.

وقوله: «**كوجهه**» هذا من صفات الذات، ويجب أن يثبت كما أثبته الله جلَّ وعلا لنفسه؛ قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] تعالى الله وتقدس.

وكذلك قوله: «**ويده**» فالله له يدان حقيقيتان كما قال جل وعلا:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] لم يقل: بيدي، قال: بيديَّ، ثناهما.

وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] يعني بالعطاء.

قوله: «**وكل ما من نهجه**» يعني ما جاء في النص من إثبات الصفات، سواءٌ كانت صفة ذات أو صفة فعل وجب أن تثبت لله جل وعلا على ما يليق بعظمته.

وعينه وصفة النزول وخلقه فاحذر من النزول

«**وعينه**» يعني أن الله ﷻ له عينان حقيقيتان، كما أن له جلَّ وعلا كلامًا وبصرًا وسمعًا حقيقة.

«**وصفة النزول**» يعني كونه ينزل، سواءٌ كان يوم القيامة أو في كل ليلة إلى السماء الدنيا فقط، أمَّا نزوله يوم القيامة للفصل فإنه يكون إلى الأرض، ينزل إلى الأرض وهو على عرشه ـ تعالى وتقدس ـ فوق خلقه كلهم، لا يكون شيء فوقه.

ثم النزول ليس كنزول الخلق[١]، وقد أَشكل هذا على كثير من الناس يعني النزول، وقد قال ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[٢] إلى أن يطلع الفجر، وقالوا: إن هذه الأرض كروية والشمس تدور عليها، فكلما انتهى ثلث الليل من هنا بدأ ثلث الليل في الغرب فيما هو غرب، وهكذا حتى تدور على الأرض، فهل النزول مستمر؟

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٤١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨).

فلهذا مِن الناس مَن ردَّ الحديث، ومنهم من قال: هذا غير معقول، والواقع أن قولهم: غير معقول، أو رَدَّهُ كلُّه باطلٌ؛ فالحديث ثابت صحيح وله معنى صحيح، ولكن سبب قولهم هذا أنهم شبَّهوا نزول الله ﷻ بنزول الأجساد المعروفة، وهذا من الخطأ؛ فالنزول خاص به تعالى وتقدس، نزول حقيقة ولكنه شيء واحد بالنسبة إليه وإن كان تعدد بالنسبة للخلق، فهذا مثل أنه يستمع لجميع الذين يعبدونه في السماء وفي الأرض في آنٍ واحد، فهل هذا يوجد نظيره في الخلق؟

كلَّا، فأفعالُه لا يجوز أن تُقاس بأفعال الخلق، هذه خاصة به لا تُشبه أفعال الخلق، فإذا تصوَّر الإنسان هذا سَلِمَ من الشبهات ومن إيراد الأمور التي يريدها هؤلاء المشبهة الذين لا يعرفون من الله إلَّا ما يعرفون من أنفسهم، تعالى الله وتقدس.

وكذلك يوم القيامة، يحاسب الله الخلقَ كلَّهم من أول مولود إلى آخر مولود في آنٍ واحد، وكل واحد يتصور أنه يُحاسَب وحدَه وهو يحاسِبُ جميع الخلق، فأفعالُه جلَّ وعلا يجب أن نعرف أنها خاصةٌ به تعالى وتقدس، ولا يجوز أن يتصور أنها كالأفعال المعهودة لنا من أفعالنا تعالى الله وتقدس.

وإذا عرف الإنسان هذا عرف أن هذا حقٌّ، وأنه على ظاهره، وأنه في آنٍ واحد بالنسبة لله جلَّ وعلا وإن تعدَّدَ بالنسبة للمخلوقين، وهذا الكلام لا تجدونه مكتوبًا في كتابٍ إلَّا أن يشاء الله، أو يتكلم فيه إنسان؛ لأن كلًّا يجعل النزول كأنه على ظاهره، ولهذا يقول: نُعرض عن هذا، يجب أن نفهم ما قاله الرسول ﷺ فهو حق، وهو خاص بصفات الله تعالى وتقدس.

وقوله: «**فاحذر من النزول**» يعني احذر من أن تنزل إلى ما يقوله الجاهلون المعطِّلون الذين لم يعرفوا قدرَ الله فتَهلِك.

فسائر الصفات والأفعال قديمة لله ذي الجلال

سائر الصفات: يعني بقيتها التي لم يذكرها، كلُّها صفات يتَّصف الله جلَّ وعلا بها، وهي قائمة به ﷻ.

قال الطحاوي رحمه الله: «ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه، لم يَزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليًّا كذلك لا يزال عليها أبديًّا»[(١)].

وقال البغوي رحمه الله: «ويجب أن يعتقد أن الله عزَّ اسمه قديمٌ بجميع أسمائه وصفاته»[(٢)].

أما الأفعال فإنه تعالى يفعل ما يشاء ومتى شاء، وليست كل أفعاله قديمة، بل نقول كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هو: ١٠٧].

لكن بلا كيف ولا تمثيل رغماً لأهل الزيغ والتعطيل

تكرر هذا؛ أن صفاته كلَّها لا يجوز أن تُطلب الكيفية فيها، ولا تمثيلها بصفة الخلق، وكذلك أفعاله.

وقوله: «**رغمًا لأهل الزيغ والتعطيل**» الرغم: هو التراب[(٣)]، يعني لهم التراب ولهم الخيبة.

و«**الزيغ**»: الميل عن الاستقامة والانحراف[(٤)].

و«**التعطيل**»: هو تعطيل الله جلَّ وعلا من معاني أسمائه أو من أسمائه، أو تعطيله من خلقه وفعله.

---

(١) متن الطحاوية بتعليقات الألباني (ص٣٤).

(٢) شرح السنة (١/ ١٧٩).

(٣) قال ابن سيده: «وفي الدعاء: فأرغم الله أنفه: ألزقه بالرغام وهو التراب». المخصص (٣/ ٤٧٢).

(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص١٨٨).

فَمُرَّها كما أتتْ في الذكرِ من غير تأويل وغير فكرِ

يعني نُمِرُّها مع معرفة معانيها، قال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية، فقال: «أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف»[١].

ولا نُمِرُّها بمعنى أن نُعرض عنها ولا نشتغل بمعناها ولا نطلب ذلك؛ لأنه لا مطمعَ فيه، كما يقول المفوِّضة، فهذا ضلال أعظم من ضلال المؤوِّلة، لأن مقتضى ذلك أن الله يخاطبنا بشيء لا يُفهم وليس له معنىً[٢].

وقوله: «**من غير تأويل ومن غير فكر**» يعني: لا تفكر في ذات الله جلَّ وعلا، ولا في حقائق صفاته، فإن فكرك لا ينتج شيئًا؛ لأن أيَّ شيء تتصوره فالله بخلافه، ولهذا قال بعض العلماء: قول الله جلَّ وعلا: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] يعني أنك يجب إذا وصل فكرك إلى البحث في الله أو في حقائق ذاته أن تنتهي وتقف، وفي الحديث: «**تفكروا في مخلوقات الله، ولا تفكروا في ذات الله**»[٣]؛ لأن الله لا مثلَ له ولا شبيهَ له تعالى وتقدس.

ويستحيل الجهل والعجز كما قد استحال الموت حقّاً والعمى

يعني أن هذه الأمور التي هي نقصٌ تستحيل على الله جلَّ وعلا، وأن الله متعالٍ ومتقدس عن أن يوصف بذلك، لا الجهل ولا العجز ولا العمى، قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن

---

(١) انظر: شرح السنة للبغوي (١/ ١٧١)، الأسماء والصفات للبيهقي (٩٥٥)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٩٣٠).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠١).

(٣) .....

مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ [فاطر: ٤٤]، فالله ﷻ لا يوصف بخلاف الصفات التي اتَّصف بها.

فكل نقص قد تعالى الله عنه فيا بشرى لمن والاه

أي أن الله تعالى منزَّه عن أي نقص سواء كان هذا النقص في ذات الصفة؛ كالجهل والعمى، أو في كمالها كالعور.

وقوله: «**فيا بشرى**» يعني البشرى التي تكون من ورائها السعادة لمن أقبل على الله جلَّ وعلا وعرَف الحقائق والمعاني التي خوطب بها وأدركها على معنى اللغة، وأثبتها لله جلَّ وعلا، مع نفي المشابهة أو الممثالة لشيء من خلقه تعالى وتقدس.

فصل
في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلد في العقائد

وكل ما يُطلب فيه الجزمُ ... فمَنْع تقليد بذاك حتمُ
لأنه لا يُكتفى بالظن ... لذي الحِجى في قول أهل الفن
وقيل يكفي الجزم إجماعاً بما ... يُطلب فيه عند بعض العلما
فالجازمون من عوامُ البشرِ ... فمسلمون عند أهل الأثر

يعني أن العقائد التي يجب على العباد معرفتها والإيمان بها لا يصح فيها التقليد، بل لابد فيها من الدليل، مثل معرفة الله تعالى، وما يجب له وما يمتنع عليه، ومعرفه الرسول ﷺ، وكذلك عبادة الله تعالى كما في مسائل القبر وقول الملائكة: «وما يدريك» أي: ما هو دليلك، فمعرفة التوحيد ووجوب الصلاة وبقية أركان الإسلام واجب بالدليل.

وقوله: «**وقيل يكفي الجزم**» يعني إذا جزم به وإن لم يعرف الدليل كفاه ذلك عند بعض العلماء، كما هو الظاهر من اكتفاء الرسول ﷺ من النطق بكلمة الإخلاص مع معرفه معناها والعمل بها، فالجازمون من عوام المسلمين مؤمنون عند أهل الحديث وهم أهل الأثر.

الباب الثاني

في الأفعال المخلوقة

وسائر الأشياء غير الذات وغيرُ ما الأسماء والصفات
مخلوقةٌ لربنا من العدم وضل من أثنى عليها بالقِدم

قوله: «**وسائر الأشياء غير الذات**» يعني ذات الرب جل وعلا.

قوله: «**مخلوقة لربنا من العدم**» يعني كل شيء خلقه الله تعالى بعدما كان معدوماً، فهو الخالق وحده، فدخل في ذلك أفعال العباد خلافاً للقدرية من المعتزله وغيرهم

«**وغير ما الأسماء والصفات**» يعني أسماء الله وصفاته.

ومعلوم أن هذا لا معنى له؛ لأنه لا يوجد ذات مجردة بلا صفات وبلا أسماء، هذا محال حتى في المخلوق.

فالله جل وعلا بأسمائه وصفاته أزلي، قديم وهو غني بذاته عن كل من سواه، ولا يقال: إنه له مبدأ، أو أنه احتاج إلى شيء في وجوده أو غير ذلك؛ ولهذا يعبرون عن ذلك بواجب الوجود[1].

وسبق أن معنى واجب الوجود عندهم: هو الغني بذاته عن كل ما سواه، وأنه لا يحتاج في وجوده وفي أسمائه وصفاته وأفعاله وغيرها إلى شيء من المخلوقات، تعالى الله وتقدس، وكل المخلوقات فقيرة إليه إيجادًا وقيامًا؛ ومعنى «إيجادًا» أنها كانت معدومة فأوجدها من العدم، وأمَّا «قيامًا» فأنها لا تقوم في حياتها إلَّا به جلَّ وعلا، فهو المحيي المميت، وهو الحي القيوم الذي لا يموت، ولا يتطرق إليه نقص أو

(١) انظر: تفسير الرازي (١/ ١٢٢)، درء تعارض العقل والنقل (١٠/ ١٠٥).

عيب، تعالى وتقدس.

وقوله: «**وضل من أثنى عليها بالقِدم**» يعني ضل الذين قالوا: إن هذا العالم قديم، من الفلاسفة، وليس لهم دليل ولا اتِّباعٌ لرسل، ولا لكتاب من كتب الله جلَّ وعلا، وإنما هي آراء وأنظار قالوها وهم وثنيون ومشركون، ولكنه سموا فلاسفة لأنهم يحبّون العلم وينظرون إلى الأمور التي هي بين أيديهم من المخلوقات وغيرها، ولهذا حكموا على هذا العالم وهذه المخلوقات بأنه قديم وأنه لا يتغير، وأنه يبقى هكذا دائمًا وأبدًا[1].

ولهذا قلنا: هم لم يعرفوا ما جاءت به الرسل فقالوا بهذا القول، ثم إن قولَهم لا يجوز أن يُعتدَّ به؛ لأن الذي يتبع الرسل ويؤمن بما جاءت به يكتفي بهذا ولا ينظر من خالفهم وإن خالفهم، وإن كانوا أعداء عقلاء؛ لأن الإنسان جعل الله جلَّ وعلا له عقلًا وفكرًا ونظرًا حتى يكون محلًّا للتكليف.

ولهذا قال: «**مخلوقة لربنا**» أي كل شيء مخلوق لله جلَّ وعلا، ولا يخرج من ذلك شيء، والعباد لا يخلقون شيئًا، وإنما يفعلون أفعالًا تتعلق بقدراتهم واستطاعاتهم، وهي التي كُلِّفوا بها، وسواءٌ كان من الأمور التي تجب أو الكف عن الأمور التي لا يجوز فعلها.

أمَّا الكفُّ فأمرُه سهل؛ لأن باب الترك سهل، بخلاف الفعل الذي يتطلب أن يكون له إرادة فيه وقدرة، وإذا وُجدت الإرادة والقدرة وُجد الفعل ولا بد؛ ولهذا كلَّف الله جلَّ وعلا عبادَه بهذا، بقدراتهم وإراداتهم، خلق لهم إرادات وقدرات، وصارت الأفعال لهم بهذه الصورة، يعني يفعلونها بقدرتهم وإرادتهم وإن كانت مخلوقة؛ لأن القدرة

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٥٣٩).

والإرادة مخلوقة لله جلَّ وعلا، هو الذي خلقها، والإنسان لا يخلق لنفسه قوةً ولا قدرة ولا يخلق اختيارًا، ولا نِيَّاتٍ، كما أنه لا يخلق يَدَيْنِ ولا رِجلين، ولا نظرًا ولا سمعًا ولا غير ذلك، فكلُّه مخلوق بصفاته.

ولكن جعل الله جلَّ وعلا له اختيارًا وفكرًا وقدرة، فالله لا يكلف أحدًا بما ليس في قدرته، ولم يكلِّفه بما لا يطيق؛ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني ما تسعه قدرة واختيارًا وإرادة، وكل ذلك بفضل الله جل وعلا.

ولهذا لـمَّا فرض الله ـ جلَّ وعلا ـ على نبيِّنا ﷺ الصلاةَ فرَضَها خمسين صلاة، ثم خففها عنه إلى أن صارت خمسًا، فقال جلَّ وعلا: هي خمس في الفعل، وفي الكتاب والأجر هي خمسون لأن الحسنة بعشر أمثالها[1]؛ وهذا من فضل الله، وإلَّا فالذي يستحقه أن تكون الحسنة بمثلها ولكنه فضل من الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وهذا اليسر فيما يفرضه الله ـ جل وعلا ـ ويلزم به العباد؛ ولهذا نقول: هذه الإرادة خاصةٌ بالمسلمين فقط، لا يدخل فيها الكافر ولا الذي خرج عن طاعة الرسل، فهي تخص الدين الذي جاء به الرسول ﷺ، وسيأتي الكلام على هذا إن شاء الله.

والمقصود أن الوجود كله ينقسم إلى قسمين:

الأول: وجود أزلي، هو وجود الله جل وعلا، وهذا أبدي، كما قال الله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] وهو غني بذاته عن كل ما سواه، لا يفتقر إلى شيء تعالى وتقدس، وليس له مبدأ كما أنه ليس له منتهىً؛ فهو أول بلا ابتداء كما أنه آخر بلا انتهاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

الثاني: وجود المخلوق، وكل مخلوق سُبق بالعدم، ثم يلحقه العدم، يلحقه الموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وهذا يعم كل نفس، فكتب الله جل وعلا على خلقه هذا، فأوجدهم الله جلَّ وعلا وقد سبقهم عدمٌ؛ لهذا قال جل وعلا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١] نعم، أتى عليه دهور طويلة ولم يكن شيء، ثم خلقه الله جل وعلا، وجعله سميعًا بصيرًا ليكون محلًّا للأمر والنهي والتكليف.

ثم هذا المخلوق له صفات، وله ذات وأعضاء، فهو بصفاته مخلوق لله جل وعلا ولا أحد يستطيع ذلك، ولكن أهل الضلال حيث اتبعوا آراءهم وعقولهم فقد ضلوا في هذا السبيل فقالوا: كيف يخلق الله جل وعلا الإنسان، ويخلق قدرته، ويخلق إرادته ثم يعذبه؟! هذا ضلال.

نقول: لا يعذبه على ترك ما يستطيع فعله، إذا ترك ما يستطيع فعله وقد أمر به بعدما جاءته الرسل وجاءه الكتاب؛ فإنه يستحق العذاب.

أما أن يعذبه على فعله هو؟ فلا، ليس هذا فعل الله جلَّ وعلا، ولكن الله خلق له هذه القدرة والإرادة وجعل الأمر إليه، وقال: إن شئت آمنتَ، وإن شئت كفرتَ، وأمامك جهنم إذا كفرت، فالأمر واضح في هذا، غير أن هؤلاء لم تتسع عقولهم لذلك، فلم يستطيعوا أن يجمعوا بين القدر وبين الشرع، بين تقدير الله للأشياء وبين شرعه، كما قال المشركون لرسول الله ﷺ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل: ٣٥].

المقصود أنهم يقولون: إن الشرك الذي وقع منَّا بإرادتنا وبقدرتنا وقع بمشيئة الله؛ لأنه لا يقع شيء إلَّا بمشيئة الله، وأنت تقول لنا: لا تشركوا! فمعنى ذلك: أننا نفعل شيئًا يريده الله وشاءه!! والذي جئت به خلاف ذلك!!

فهم يعترضون على الرسول ﷺ بالقدر وعلى الشرع، يردُّون الشرعَ بالقَدَر! هذا كفرٌ وضلال، الأمر ليس كذلك، فالله جلَّ وعلا خلقكم وخلق لكم القدرة والإرادة وأمركم بأوامر يجب أن تمتثلوها، فإذا لم تمتثلوا بذلك كان ذلك عنادًا؛ مثل: إذا قيل للإنسان: صَلِّ، يقول: لا، أنا ما كُتب عليَّ أن أصلي!

وما يدريك أنه ما كتب عليك أن تصلي؟ هل اطلعت على اللوح المحفوظ، ثم الكتابة تمنعك من الصلاة؟ لا تمنعك، ولكن أنت لا تريد أن تصلي وتريد أن تجعل اللوم على القَدَر، على الكتابة، وتبرر لفعلك بذلك؛ فهذا عناد ليس عليه دليل.

فالكتابة مجرد كتابة علم الله في هذا المخلوق، أنه سوف يفعل أفعاله باختياره وقدرته، ما من أحد يكلفه ذلك، فعلمه الله جلَّ وعلا قبل وجوده فكتبه، فكتاب الله جلَّ وعلا كتابُ عِلمه، علم الأشياء قبل وجودها، فهي تقع على وفق علمه وكتابته، ثم مشيئته الشاملة العامة، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا شاء هداية الإنسان هداه، يعني أن وراء هذا الشيء هداية وتوفيق وتسديد كما قال الله جل وعلا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨].

فهذا فضله ﷻ ونعمته، فإذا قيل: لماذا لا يكون الناس كلهم سواء؟ قيل: ليس الأمر هكذا؛ لأن الناس مختلفون؛ منهم من يستحق الهداية فضلًا من الله، ومنهم من ليس أهلًا لها.

ولهذا يقول الله جلَّ وعلا في هؤلاء حينما يقولون يوم القيامة: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] حينما يعاينون العذاب، قال الله جل وعلا: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] يعني لو رُدُّوا إلى حياةٍ أخرى مثل هذه الحياة الدنيا لَعادوا إلى كفرهم

وضلالهم؛ لأن هذا شيء مطبوع في نفوسهم، لا يستطيعون تغييره؛ لما في نفوسهم من الشر وإرادته، فبفعلهم يستحقون ذلك.

قوله: «**مخلوقة لربنا من العدم**» يعني أنها سبقها العدم، كل مخلوق معين سبقه العدم، ولكن المخلوقات هل لها مبدأ؟

يعني الله ـ جل وعلا ـ لم يزل يخلق ولكن ما نعرف هذه الأشياء، الله أعلم؛ لأنه جلَّ وعلا ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، ليس كما يقول أهل الضلال: إن الله صار يفعل بعد أن لم يكن يفعل!! يعني كان معطَّلًا من الفعل، ومن القول، ومن الأمر، ومن غير ذلك! ثم صار يأمر ويقول ويفعل ويخلق! وهذا نقص، والله تعالى منزَّه عن النقص والعيب، فهو فعَّال لما يريد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن ظن به أنه كان معطَّلًا من الأزل إلى أن صار يفعل بعد أن كان لا يفعل، ولا يوصف حينئذٍ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرًا، فقد ظن به ظن السوء»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيته:

والربُّ ليس معطَّلًا عن فعله ... بل كلَّ يومٍ ربُّنا في شان[(٢)]

ولهذا قال: «**وضلَّ من أثنى عليها بالقدم**» يعني مَن جعل المخلوقات قديمة، يعني أزلية، هذا ضلال بيِّن، بل هو كفر.

وقد رمى بعضُ الناس شيخَ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه يقول بقول الفلاسفة الذين يقولون بقدم العالم، مع أنه ردَّ عليهم في كتابه الصفدية وغيره من الكتب التي يعرفها أهل العلم[(٣)].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٠٨).

(٢) نونية ابن القيم (ص٦٠).

(٣) انظر: الصفدية (١/ ١٣١)، درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣٥١)، مجموع الفتاوى (٦/ ٣٣٣).

وربنا يخلق باختيار من غير حاجة ولا اضطرار

يعني أن خَلْقَه وفِعلَه باختياره تعالى وتقدس؛ ولهذا سمى بعض الصفات له الصفات الاختيارية، يعني أنها تتعلق بإرادته وبقدرته، بإرادته: إذا أراد أن يخلق خَلَقَ، وإذا أراد أن يتكلَّمَ تكلَّم، وإذا أراد ألَّا يتكلم لا يتكلم، فهو يأمر وينهى بإرادته جلَّ وعلا.

فالله جلَّ وعلا غنيٌّ بذاته عن كل ما سواه، وخَلْقُه وإيجادُ المخلوقات لا لكونه يتكثَّرُ بهم أو يتعزز بهم أو يتقوى بهم تعالى وتقدس، بل خلقهم للابتلاء والاختبار؛ هل يُطيعون أمره، وينتهون؟ ولهذا يقول جلَّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

فهو الغني عن كل شيء، خَلَقَهم ليكونوا محلًّا للأمر والنهي ويبتليهم؛ فمن أطاع الأمر واتبع ما يرسل به رسله فله السعادة الأبدية، سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة؛ لأن طاعة الله جلَّ وعلا وامتثال أمره سعادةٌ في الواقع ونعيمٌ أفضل من الأكل والشرب وفعل الشهوات، وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول: إن كان أهل الجنة في نعيم مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، ولكن هل هذا يصل إليه كل أحد؟

لا يصل إليه كل أحد، فهم يتلذَّذون بطاعة الله أكثرَ من تلذُّذِ العاصي بالمعصية، ولو مُنع أحدهم من الصلاة لله جلَّ وعلا مات حسرةً كالذي يُمنع من الأكل والشرب فيموت؛ ولهذا يُنكرون على مَن يسمي الأوامر تكليفًا، ليست تكليفًا في الواقع بل هي نعيم ولذة في طاعة الله جل وعلا.

كذلك يقولون: «إن في الدنيا جنَّة من لا يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»، الجنة هي التلذُّذ بطاعة الله جلَّ وعلا، والله يحبُّ عبادَه

المتَّقين وهم يحبونه، فحبُّهم يكون حبًّا لطاعته وامتثال أمره، وحبًّا لذاته تعالى تقدس، ولا يوجد في الكون كلِّه شيء يُحَبُّ لذاته إلَّا الله، أمَّا البقية فتُحَبُّ لأفعالها ولصفاتها؛ فيُحَبُّ المؤمن لأنه مؤمن، يحب الرسول ﷺ لأنه رسول لأن الله يحبه فتحبه لذلك، ما يُحَبُّ لأنه لحم ودم، ولا لأنه بشر، ولكن يُحَبُّ للصفات التي يتَّصف بها.

أمَّا ربُّنا جلَّ وعلا فيجب أن يحب لذاته.

لكنه لا يخلق الخلق سُدَى كما أتى في النص فاتْبَعِ الهدى

«**لكنه لم يخلق الخلق سُدَى**» أي لم يخلق الخلق بلا حكمة وبلا علة تكون هي الغاية.

وقوله: «**كما أتى في النص فاتبع الهدى**» يعني أنهم لم يُخلقوا عبثًا، بل خلقهم جلَّ وعلا ليكونوا أهلًا للأمر والنهي، وليبتليهم ويتميز المطيع من العاصي، والله يعلم هذا قبل وجودهم، ولكن من فضله وعدله أنه لا يأخذ أحدًا إلَّا بالعمل الذي يعمله، وإلَّا فقد علم ذلك قبل وجودهم وكَتَبَه؛ علم أنه سوف يطيع هذا ويكون متقيًا، وسوف يعصي هذا ويكون فاجرًا كافرًا، فكتب ذلك قبل وجودهم ثم لا يأخذه إلا بهذا.

ولهذا ففي حديث ابن مسعود الذي هو أصل من أصول الإسلام، يقول: حدثنا الصادق المصدوق، يعني فيما يأتيه من الله جلَّ وعلا؛ لأنه لا ينطق عن الهوى: «**إن خَلْقَ أحدِكم يُجمع في بطن أُمِّه أربعينَ يومًا نُطفةً، ثم أربعين يومًا عَلَقَةً ـ العلقة: قطعة دم ـ ثم أربعين يومًا مضغة ـ يعني قطعة لحم ـ ثم يُرسَل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد**».

فتكتب أربعة أشياء: الرزق، والأجل، والعمل، وشقاوته أو سعادته، فهذا مكتوب مفروغ منه وهو في بطن أمه، فلا يُزاد على ذلك ولا يُنقص.

ثم قال: «**والذي لا إله غيره، إنَّ أحدكم لَيعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا شبر أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**» ما يدخل النار بالكتابة، يدخلها بالعمل، عمله.

«**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا شبر أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[(١)].

فالذي يؤمن ويتَّبع الرسول ويكون مطيعًا يُيَسِّرُه الله جلَّ وعلا لليُسرى، ويُهيِّئ له الأسباب فضلًا منه، ثم يختم له بالعمل الذي يستحق به دخول الجنة والسعادة.

والله جلَّ وعلا يخلق لحكمة؛ لأنه حكيم، ولأنه جلَّ وعلا عليمٌ بكل شيء ولا يخلق عبثًا، إن كان بنو آدم يعملون أعمالًا عبثًا لا معنى لها، ولكنه لا يخلق الخلق سُدىً، والسُّدى أي: المهمل[(٢)] الذي لا يُؤمر ولا ينهى، كما جاء تفسير ذلك عن الصحابة في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

فقال «**سدى**» يعني أنه لا يؤمر ولا ينهى كما جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره[(٣)].

قوله: «**كما أتى في النص**» النص هو كتاب الله جلَّ وعلا وسُنة رسوله ﷺ وأقوال الصحابة والسلف.

أفعالنا مخلوقة لله لكنها كسبٌ لنا يا لاهي

«**أفعالنا**» كلُّ ما يَصدر من العبد فهو مخلوق لله وإن كان في الواقع فَعَلَه الإنسان بقدرته واختياره، فالله خلق له القدرة والاختيار، ليست قدرته مخلوقةً له ولا لأُمِّه وأبيه، بل مخلوقة لله، فلو كان الإنسان يخلق

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٣).

(٢) انظر: مختار الصحاح (ص١٤٥).

(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٨٣).

قدرتَه لم يَرْضَ أن يكون أحدٌ أقدرَ وأقوى منه، فالله فاوَتَ بين خلقه في هذا، وهو جلَّ وعلا علَّامُ الغيوب الذي يضع الأشياء في مواضعها إنه حكيم عليم.

وهذا خلاف ما يقول أهل البدع: كيف يخلق الفعلَ ثم يعذِّبُ عليه؟ هذا ظلم! قالوا: إن الإنسان يخلق فعله، فوقعوا في شرك الربوبية، والشرك في الربوبية أعظم من الشرك في الألوهية؛ لأنه أمر واضح جليٌّ ولا خفاءَ فيه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «جمهور أهل السنة من السلف والخلف يقولون: إن العبد له قدرة وإرادة وفعل، وهو فاعلٌ حقيقةً، والله خالق ذلك كلِّه كما هو خالقُ كلِّ شيء، كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة»[(١)].

وقالوا: الإنسان يخلق أفعاله، ولا دخلَ لله في ذلك! وهؤلاء هم القدرية الذين سماهم أهل السنة مجوسَ هذه الأمة كما جاء عن النبي ﷺ[(٢)]؛ لأن المجوس يؤمنون بإلهين خالِقَين: خالق الخير وخالق الشر، ويقولون: خالق النور وخالق الظلمة، بل يجعلون النور هو الخالق، والظلمة هي الخالقة ولكن الظلمة شريرة، إله شرير عندهم، يعمل الشر، والنور إله خير يعمل الخير، وهذه كلُّها خرافات وضلال، صاروا إليها حينما فسدت عقولهم وفسدت أفكارهم فقالوا بهذا.

وبنو آدم محل العجائب في أفعالهم وفي عباداتهم، وفي اتجاهاتهم، وفي نيَّاتهم وإيراداتهم، فعجبًا للإنسان كيف يكون عنده عقل وفكر ويقول مثل هذا؟ بل يقول ما هو أخسُّ من هذا؟

بل كيف لإنسان عنده عقل ونظر وفكر يعبد الفأرة، أو يعبد القرد، أو يعبد البقرة، أو يعبد إنسانًا ميتًا لا يستطيع أن يجلب لنفسه خيرًا،

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ١١٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، وابن ماجه (٩٢).

ولا أن يدفع عن نفسه شرًّا، ويعبده ويدعوه ويتَّجه إليه؟! أو يعبد حجرًا، أو يعبد شجرة أو غير ذلك من المخلوقات؟!

هذا ضلال وانتكاس في الفطرة وفي العقل، وفي الدليل مخالفة للحق الواضح الجلي، وهذا المشرك لا عذر له إذا وقع في الشرك، سواءٌ عَلِمَ ما جاء به الرسول أو لم يعلم، فهو في جهنم إذا مات على الشرك؛ لأن الأدلة على هذا لا حصرَ لها، لو نظر في نفسه أو نظر فيما حوله من المخلوقات لَعَلِمَ أن هذا ضلال، ولكنه أعمى نفسه، وأعرض عن ذلك؛ ولهذا لـمَّا سُئل المصطفى صلوات الله وسلامُه عليه عن أناس معيَّنين ماتوا في الجاهلية فقال هم في النار[١]؛ لأنهم ماتوا على الشرك، والمشرك عطَّلَ عقلَه وفِطرَتَه وعطَّل الأدلة القائمة حوله الكثيرة تحت رجليه، وفوق رأسه، وعن يمينه، وعن شماله، وفي نفسه، مَن الذي أوجده؟ من أين جاء هو؟ فالخالق هو الذي يجب أن يُعبد.

قوله: «**لكنها كسب لنا يا لاهي**» الكسب هذا يحتمل أن يكون حقًّا ويحتمل أن يكون باطلًا؛ لأن من المتكلمين ـ مثل الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ ـ من يقول: إن كسب الإنسان غير العمل[٢]، فسر الكسب بشيء غير معقول.

ولهذا يقولون: ثلاث من عجائب الكلام: كسب الأشعري، وطفرة النظام، وأحوال أبي هاشم[٣].

يعني أن هذه من العجائب، وغير معقولة.

الطفرة هي الوثب في ارتفاع[٤]، زعم النَّظَّام أنه قد يجوز أن يكون

---

(١) أخرجه أحمد (١١٣١).

(٢) انظر: النبوات (١/ ٥٨١).

(٣) انظر: النبوات (١/ ٥٨١)، منهاج السنة (١/ ٤٥٩).

(٤) انظر: القاموس المحيط (ص٤٣١).

الجسم الواحد في مكان ثم يصير إلى المكان الثالث ولم يمرَّ بالثاني على جهة الطفرة[١].

أمَّا أحوال أبي هاشم فهي أحوال بين الصفات وبين الأفعال وهذه الأحوال لا تعرف على انفراد فهي على حيالها لا موجودة ولا معدومة ولا معلومة ولا مجهولة! يعني شيء لا حقيقة له[٢].

وأمَّا كسب الأشعري فهو يقول: قدرة المخلوق لا تأثير لها، وإنما تقارن الفعل، تقارن المفعول فقط فهي لا تأثير لها[٣].

فما الفائدة فيها إذن؟!

فتفسيرهم للكسب بأنه مقارنة قدرة المخلوق التي لا تأثير لها في الفعل، يجعل الإنسان مُجبرًا؛ ولهذا فالأشاعرة جبرية من هذا الجانب، على هذا المعنى.

والجبر أن الإنسان يكون غير قادر على الشيء، كالآلة التي يديرها الإنسان، أو إن شئت قل: بمنزلة الريشة التي في مهبِّ الريح، مرةً تديرها هنا ومرة هنا، لا اختيارَ لها، وهذا ضلال بيِّن[٤].

ويطلق الكسب على العمل كما قال الله جل وعلا: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فالكسب عمل، وهو الحق، فتحتمل هذه الكلمة الحق وتحتمل الباطل، والأمور المحتملة لا يجوز أن تطلق بل يجب أن تفسر وتبيَّن وتوضح حتى يتبين الحق من الباطل.

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (٣٢١).
(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٨٢)، الفرق بين الفرق (ص١٨٢).
(٣) انظر: النبوات (١/ ٥٨١).
(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٦٦٤).

وكل ما يفعله العباد من طاعة أو ضدها مرادُ

يعني أن كلَّ ما يفعله العبد مرادٌ لله جلَّ وعلا، أي أن الله شاءَه وأوجده بمشيئته، ولا يقع شيء إلَّا بمشيئته.

ولكن الإرادة تنقسم إلى قسمين عند أهل السنة، أما عند أهل البدع يزعمون أن الإرادة شيء واحد[١]:

القسم الأول: الإرادة الدينية الشرعية الأمرية؛ أخذًا من قوله جل وعلا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله جلَّ وعلا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] فهذه الإرادة في الشرع، في شرعه جلَّ وعلا؛ ولهذا نقول: هذه خاصة بالمسلمين ولا تتعداهم إلى غيرهم؛ لأنها في شرع الله، إرادة دينية شرعية في الدين، فيسَّر الله دينه وشرعه، جعله سهلًا ميسرًا إرادةً منه تعالى وتقدَّس.

القسم الثاني: الإرادة العامة الشاملة، وهي الإرادة الكونية التي يكون بها الأشياء، والإرادة الدينية داخلة فيها، فهذه الإرادة عامة شاملة لا يخرج عنها شيء.

فإذًا كما قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]، والمشيئة العامة هي الإرادة الكونية، فالمشيئة لا تنقسم بل هي شيء واحد، وإنما الذي ينقسم الإرادة، وهذا خاص بأهل السنة اتباعًا لكتاب الله جلَّ وعلا ولما جاءت به الرسل، فهم لا يقولون شيئًا من عند أنفسهم، وإنما يتَّبعون ولا يبتدعون.

---

(١) انظر: شرح الطحاوية (ص٦٩ ـ ٧٠).

ولهذا يقول: «**وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ**» يعني مرادٌ لله جلَّ وعلا، فهو داخل في الإرادة الكونية التي يكون بها الأشياء.

لربنا من غير ما اضطرارِ منه لنا فافهم ولا تُمَار

«**لربنا**»: يعني مراد لربنا.

«**من غير ما اضطرار**» يعني أنه لا يضطر أحدًا إلى ذلك، بل يأمر بما يُستطاع، والإنسان يفعل الشيء باختياره وبقدرته، واختيارُه وقدرته مخلوق لله جلَّ وعلا، فلا يخالف كونه خالقَ كلِّ شيء، كما جاء في آيات كثيرة: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] فكل شيء داخل فيه.

يقول جل وعلا في قصة إبراهيم عليه السلام، لَـمَّا أنكر على قومه عبادة الأوثان التي يصنعونها بأيديهم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦]، فكيف لإنسان عاقل ينجر خشبة، أو يعمل طينًا بيده، أو يأخذ حجرًا فينحته ثم يعبده؟! من أين هذا الفكر؟

كما يذكر أبو عطارد أن أهله أرسلوه بزبد ولبن إلى الآلهة، وكان ينظر إليها محتاجًا ولكنه خاف أن يأكل منها شيئًا فتعاقبه الآلهة، والآلهة حجر! يقول: فوضعته فجاء ثعلب فشرب اللبن وأكل الزبد، ثم بال على الصنم.

يعني أن هذا الثعلب عرف قدر هذ الصنم، ألا يعرف الإنسان هذا؟ لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب.

ولهذا يقول: ولكنهم لا يعقلون، لأنهم لا يستعملون العقل، بل لا عقل عندهم يستعملونه، وهم يُقِرُّون على أنفسهم عندما تحصحص الأمور؛ قال تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] لكنهم لا يسمعون السماع النافع، ولا يعقلون العقل النافع.

والعجب من هؤلاء الذين يأتون بهذه المخترعات الهائلة في الشيء المشاهَد الآن، سواء كانت من الأمور التي تدمر أو الأمور التي تنفع،

وهذه تحتاج إلى فكر وعقل كبير، ثم يعمون عن الأمر الذي جاءت به الرسل، والأمر الذي يسعد فيه الإنسان يعمون عنه ولا ينظرون إليه، يعلمون بالحياة الدنيا وما فيها ولكنهم عن الآخرة عُمْيٌ.

قوله: «**من غير ما اضطرار**» يصلح أن يكون هذا عائدًا إلى الله جلَّ وعلا، ويصلح أن يكون عائدًا إلى الخلق، أنه ما اضطر الخلق إلى شيء يجبرهم عليه بل يفعلون الشيء باختيارهم، يصلح أن يكون الله يفعل هذا بإرادته وقدرته واختياره، وكلا الأمرين مرادٌ.

فقوله: «**من غير ما اضطرار منه لنا**» يعني ما اضطرنا إلى أن نفعل الأفعال التي نفعلها وإنما نفعلها باختيارنا.

قوله: «**فافهم ولا تمار**» المماراة: هي المجادلة في الباطل بعد العلم[1]، فافهم ولا تمارِ.

وجازَ للمولى يعذب الورى من غير ما ذنبٍ ولا جرم جرى

هذا ليس صحيحًا، فالله جل وعلا حرَّم الظلم على نفسه وجعله بيننا محرَّمًا كما ثبت ذلك، قال ربُّنا جلَّ وعلا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ولكن مقصوده للعقل، فمثلاً لو أنه عذَّب خلقه فإنه يجوز! هذا في عقولهم، والعقل يجب أن يكون تابعًا للأخبار التي تأتي بها الرسل، والله أخبرنا أنه لا يظلم أحدًا وأن الظلم محرَّم.

وهذا القول هو قول الأشاعرة: يجوز أن يعذب الله الطائعَ الذي أفنى عمره بالطاعة ويجعله في النار، وأن الكافر الذي أفنى عمره بالقتل والسبي والفساد ومات على ذلك يجوز أن يجعله في الجنة!

---

(١) انظر: النهاية لابن الأثير (٤/ ٣٢٢).

هل هذا معقول؟!

هذا لا يقع، ولا يجوز؛ لأن الله جلَّ وعلا حَكَمٌ عدلٌ تعالى وتقدَّس، ولكن تحت هذا البيت أشياء، منها: الظلم، ما هو تفسير الظلم؟

الظلم فسروه فقالوا: إنه التصرف في ملك الغير بغير إذنه ورضاه، وهذا تفسير خطأ، الظلم في الواقع: هو وضع الشيء في غير موضعه[١]؛ ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] لماذا؟ لأنه وضعٌ لعبادةٍ في غير موضعها.

فهذا تفسير لغوي وشرعي: وضع الشيء في غير موضعه، فالأشاعرة فسَّروا الظلم بأنه التصرف في مِلك الغير بغير إذنه، فلزم من هذا أنه إذا كان الله يملك كلَّ شيء، فإذا فعل ذلك فليس هذا ظلمًا، يعني إذا عذب الطائع وأنعم على العاصي يقول: ليس هذا ظلمًا؛ لأنه تصرُّفٌ في ملكه بما يشاء، وهو يفعل ما يريد تعالى وتقدس، ولكن نقول: إن الله أخبرنا أنه لا يفعل الظلم، وأنه حرَّم الظلم على نفسه، وأنه أيضًا أوجبَ على نفسه إثابة الطائع ـ كما قال المصطفى ﷺ ـ في حديثه لمعاذ: «**أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**»[٢].

فإذًا أثبت لنفسه الحق، وقال: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] فهو الحق هو أحقَّه على نفسه، ولم يوجبه أحد عليه.

مسألة أخرى: وهي لبعض أهل البدع والضلال الذين جعلوا الشرع في عقولهم، قالوا: إنه يجب على الله إثابة الطائع وعقاب المجرم العاصي!

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني (ص١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

يجب! من الذي أوجبه؟ يجب على الله إثابة الطائع!!

هؤلاء المعتزلة لهم أصول خمسة غير أصول المسلمين التي جاء بها الرسول ﷺ، يسمونها أصول الإسلام، وقد شرحها القاضي عبد الجبار بكتاب سماه «شرح الأصول الخمسة»، والذي يسمع بهذه الأصول الخمسة يظنها: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان والحج، ولكن ليست كذلك، فالأصول الخمسة عندهم هي:

الأصل الأول: وجوب تعذيب المذنب وإثابة الطائع.

الأصل الثاني: فعل الأصلح؛ أن الله يفعل الأصلح للعباد.

الأصل الثالث: المنزلة بين المنزلتين، أي أن العاصي يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، فيكون بين الكفر والإيمان، من أين جاؤوا بهذا؟!

الأصل الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمَّنوا هذا: الخروج على الأئمة وقتالهم.

الأصل الخامس: الوعد والوعيد[1].

كل هذه بدع وجرأةٌ على الله! نسأل الله العافية.

فقوله: «**وجاز للمولى يعذب الورى...**» نقول: إن الله أخبرنا أن هذا غير جائز، والرسل كذلك جاءت به، فالله لا يعذِّب إلَّا المذنبَ الذي خالف الأمر وارتكب النهي، أمَّا الطائع فالله لا يعذِّبُه؛ ولهذا يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٦] فالله ﷻ أنكر هذا بآيات كثيرة، والله لا يجعل المسلم كالمجرم.

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص١٤٩) وما بعدها.

فكل ما منه تعالى يَجْمُل لأنه عن فعله لا يُسأل

يعني أنَّ كلَّ ما يفعلُه الله ﷻ فهو جميلٌ حق؛ لأنه ـ جلَّ وعلا ـ عليمٌ حكيم.

ولكن هل يقال: إن الله يفعل الشر؟ أو إن الله يخلق الشر، ويفعله؟

أمَّا أن يقال: يفعله، فلا يجوز؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**والشر ليس إليك**»[1]، أي: ليس لك نسبةً؛ وذلك تأدُّبًا مع الله؛ لأن الله جلَّ وعلا يقول: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]، فلم يخرج عن هذا شيء من الأشياء، والصحيح أنه لا يجوز أن نضيفه إليه ولا يجوز أن ننفيه عنه، وقد جاء في القرآن ذكر الشر على ثلاثة أقسام:

الأول: أن يدخل في العموم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

الثاني: أن يُحذَف فاعله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ يقول مؤمنو الجن: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ حُذف الفاعل هنا وبُني للمفعول.

ويقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأضاف المرضَ إلى نفسه، والشفاء إلى ربِّه جلَّ وعلا.

والثالث: أن يضاف إلى المخلوق ـ كما قال الله جلَّ وعلا ـ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ [الفلق: ٢ ـ ٣]، فجعل الشر في المخلوق، فهو ليس إليه.

ثم لا يجوز أن ننفيه عنه حتى لا يكون هناك خالقٌ يدبر غيرُ الله جلَّ وعلا، وهذا من باب الأدب، فلا تنفيه عن الله جلَّ وعلا ولا تثبته لله،

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

يعني أن تقول: إن الله لا يخلق الشر[١].

أمَّا قولُ: «**لا يفعل الشر..**» فنعم؛ لأن الفعل هذا صفة، وصفاتُه كلُّها جميلة حسنة عُليا، وقول الرسول ﷺ في ثنائه على ربِّه ودعائه: «**والشر ليس إليك**» يعني أدبًا؛ لأنه لا يُضاف إلى الله، فهو تعالى وتقدس عن ذلك؛ لهذا يقول: «**لأنه عن فعله لا يُسأل**» ليس لهذا التعليل فقط؛ ولكن لأن صفاته أيضًا عُليا، وأسماءه حسنى، فلا يدخل فيها نقص ولا عيب.

فإن يُثِبْ فإنه من فضله وإن يعذب فبمحض عدله

يعني إذا أثاب العبدَ فذلك فضلٌ من الله، وهذا حقٌّ؛ لأن الله جلَّ وعلا هو الذي يسَّر له العملَ الذي يكون سبب الإثابة، وهو الذي أقدره عليه، وهو الذي هداه إليه، فهو الهادي وهو المتفضل، فهو محض عدله تعالى وتقدس؛ ولهذا يقول: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] فهنا أولًا: جعل هذا من فضله، ثم ثانيًا: فرَّق بين الكفر والفسوق والعصيان.

فالكفر شيء والفسوق شيء والعصيان شيء؛ المعصيةُ تطلق على القليل والكثير، والصغير والكبير، والفسوق هو الخروج عن الطاعة فهو أعظم، وأمَّا الكفر فهو أعظم من ذلك.

فلم يجب عليه فعلُ الأصلح ولا الصلاح ويحَ مَنْ لم يُفلِحِ

هذا خلافًا للمعتزلة، ولأحد أصولهم الخمسة، فهم يقولون: يجب على الله أن يفعل للعبد الأصلح، ويقال: إن هذه المسألة هي سبب ترك الأشعري لمذهب الاعتزال؛ لأنه عاش أربعين سنة على الاعتزال، كان يتعلم على زوج أمه؛ لأن والده توفي وهو صغير، فتزوجها أحد كبار المعتزلة، وهو عبد الجبار المعتزلي، رأس المعتزلة، صاحب الكتب

---

(١) وانظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٦/ ٥٩)، فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٥٣٢).

الكثيرة، وله كتب جميلة وجيدة، ولكنها دخل فيها الاعتزال ونفي الصفات، مثل كتابه «تثبيت دلائل النبوة»، فهذا كتاب جميل، وفيه أدلة في إثبات النبوة كثيرة جدًّا، وإن كانت عقلية ولكنها حسنة جميلة، وكذلك فيها الرد على الرافضة وغيرهم من أهل البدع وهو صاحب بدعة.

يقال: إن الأشعري سأله: قال أخبرني عن ثلاثة إخوة ـ يعني مآلهم في الآخرة ـ أحدهم عاش عمره مطيعًا لله فمات على الطاعة، والثاني عاش عمره كافرًا فمات على كفره، والثالث مات صغيرًا، أين هم؟

فقال: الكافر في النار، والذي عاش مسلمًا مطيعًا في الجنة، والذي مات صغيرًا في الجنة.

فقال: الذي مات صغيرًا مع الذي عاش مطيعًا، هل هما في درجة واحدة؟

قال: لا.

قال: لماذا؟

قال: لأن هذا صلَّى وصام وحجَّ وجاهد وعمل أعمالًا فلا يكون مثل الذي مات صغيرًا لم يعمل شيئًا.

فقال: ألا يحتج على الله يقول: يا رب، لماذا ما أبقيتني حتى أعملَ مثلَ أخي فأكون في منزلته؟

قال: يقول له جلَّ وعلا: فعلتُ فيك الأصلح، رأيت أن الأصلح لك أن أقبضك صغيرًا.

فقال: إذًا ينادي ذلك الشقي من طبقة جهنم يقول: يا رب، لماذا ما قبضتني صغيرًا فإنه الأصلح لي؟ فهنا وقف وعرف أن هذا باطل[1].

---

(١) ...

فالله جلَّ وعلا يفعل ما يشاء، والإنسان يؤاخذ بأعماله، والله لا يجب عليه شيء، ولا يجب أن يفعل الأصلح، هذا إذا صحت الحكاية، فالله أعلم، هي سبب ترك الأشعري لمذهب الاعتزال، ثم صار كلابيًّا، تبعًا لأبي سعيد الكلابي، وهو من أهل البدع ولكنه أقرب الناس إلى أهل السنة؛ لأنه يُؤوِّل الصفات ويرد على المتكلِّمين، ثم بعد ذلك صار من أهل السنة، انتقل عن هذا المذهب إلى مذهب أهل السنة، ولكن هذا المذهب الانتقال الثالث، الدور الثالث لا يرضاه الأشاعرة، يرضون كونه على مذهب ابن كلاب.

وقوله: «**ولا الصلاح ويح من لم يفلح**» فالصلاح يعني وجب أن يصلح الخلق، فالله جلَّ وعلا جعلهم محلًّا للأمر والنهي ووكل الأمر إليهم، قال: عندك العقل والاستطاعة والإرادة وأَمَرْتُ بالشيء الذي تستطيعه فإن أطعتَ واتَّبعتَ الرسول فلك الجنة، وإن أَبَيْتَ وكفرت فلك النار، والأمر إليك؛ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ولا يجب عليه جل وعلا أن يفعل الأصلح للعبد أو يجعله صالحًا، فهذا إلى إرادة الله جلَّ وعلا، يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء تعالى وتقدس، فأنْ يكون يخلق الأسباب وييسرها لمن يشاء لا يلزمه ذلك.

فكل من شاء هداه يهتدي وإن يُرِد ضلالَ عبد يعتدي

يعني أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهذا أيضًا خلافًا للمعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان هو الذي يهتدي بقدرته، وهو الذي يكفر بقدرته وإرادته؛ وهو خلاف الحق؛ فالله جلَّ وعلا يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

فصل
في الكلام على الرزق

والرزق ما ينفع من حلال أو ضدُّه فَحُلْ عن المحال
لأنه رازقُ كلِّ الخلق وليس مخلوقٌ بغير رزق

يعني أن الله هو الرزَّاق ـ تعالى وتقدس ـ وكلُّ ما يقتاته الإنسان فهو رزق، سواءٌ كان حلالًا أو حرامًا، إن كان حلالًا يثاب عليه؛ لأنه امتثل الأمر، وإن كان حرامًا يعاقب عليه؛ لأنه عصى الأمر، وفعل ذلك بالاختيار، والله هو الرازق، رازق لكل شيء، كل دابة على الله رزقها بكل مكان، فهو الله الذي يرزقها، ولكن الرزق ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: رزقٌ يعاش به ويقتات به في هذه الحياة وهذا له سبب، فإن كان سببه شرعيًا يثاب عليه الإنسان، وإن كان سبب كسبه وأخذه من غير الطريق المشروع عوقب عليه، والله كتب رزق الإنسان وهو في بطن أمه، ولا يزيد عما كتب ولا ينقص.

القسم الثاني: ما هو أعلى من هذا وأفضل وأحسن وأجمل، وهو رزق الإيمان والعمل الصالح والتُّقى؛ فهذا يمنُّ الله جلَّ وعلا به على من يشاء ويحرمه مَن يشاء، وقد كتب أيضًا هذا وهو في بطن أمه «شقي أو سعيد»؛ لأن الشيء بأسبابه، الشقاء له سبب والسعادة لها سبب، فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومشيئته ﷻ نافذة.

قوله: «**ما ينفع**» أي ما يقتات به. «**أو ضده**» وهو الحرام.

«**فحُل عن المحال**» يعني عن قول الذين يقولون: إن أكل الحرام ليس

رزقًا، والرزق هو الحلال، أو الذين يقولون: إن الله لم يخلق هذا، وليس هذا من رزق الله، وإنما هذا يعود إلى البشر، وكل ذلك يعود إلى ما مضى، يعني معارضة الشرع بالقدر، وهذا باطل.

فهو الرزاق تعالى وتقدس، ومعلوم أن هذا يكون بالاختيار، باختيار الإنسان كونه يسلك طريق الحق والصواب الذي أمر الله جلَّ وعلا به، أو لا يبالي؛ فيسرق من الناس، ويأخذ بالقوة، ويأكل الربا، ويأكل أموال اليتامى والضعفاء والأجراء، والمستأجرين وغير ذلك؛ فهذا يأخذه باختياره وهو رزق مكتوب له وهو في بطن أمه، بل قبل وجود الخلق، ولكن الكتابات تختلف.

ومن يمت بقَتلهِ من البشرْ أو غيره فبالقضاء والقدر

يعني أن الله جلَّ وعلا كتب الأجل، فالقاتل لا يقطع عن المقتول رزقَه وأجلَه كما يقوله المعتزلة، يقولون: إنه لو تركه لعاش، لكن هذا تقدير لا وجود له أصلاً ولا يمكن أن يتغير، فالذي يقع مكتوب، ولا يمكن أن يتغير، ومثلُ هذا قول كثير من الناس مثلًا يقول: لولا أني فعلت كذا لصار كذا، هذا الذي وقع لك لا يمكن أن يأتي خلافه أبدًا، فيجب أن يجزم بهذا ويعلم أن الله جلَّ وعلا قدَّر الأشياء بأسبابها.

والمقتول مات بأجله، قتل بأجله لا يمكن أن يعيش لأن هذا الذي قدره الله جل وعلا وكتبه، والقاتل لم يقطع عليه أجله ولكنه آثِمٌ إذا كان قتَلَه بغير حق، فعليه جُرمُه.

وإذا قُتل بحق أو قتل بباطل؛ فقد انتهى أجله بهذا؛ لأن الله جعل لكل شيء أجلًا.

ولم يَفُتْ من رزقه ولا الأجل شيءٌ فدَعْ أهلَ الضلال والخطل

اعلم أن القاتل لم يقطع على المقتول رزقَه ولا أجله، وإنما هذا

الذي كتبه الله في الأزل قبل وجود الأشياء.

وقوله: «**شيء**» نكرة مطلقة تفيد العموم.

قوله: «**فدع أهل الضلال**» يعني لا تسلك مسلكَهم وابتعد عنه، واعرف الضلال حتى تجتنبه.

و«**الخطل**» الخطأ، ومجانبة الحق[1].

(١) المصباح المنير (١/ ١٧٤).

الباب الثالث

في الأحكام والكلام على الإيمان ومتعلقات ذلك

وواجب على العباد طُرّا أن يعبدوه طاعةً وبرّا

الواجب: هو الشيء اللازم الذي لا بد منه، فإذا تركه الإنسان عوقب.

ولهذا يعرف الواجب بأنه: ما يُثاب فاعله، ويعاقب تاركه.

و«**العباد**» مأخوذ من العبادة، وهم يقسمون إلى قسمين:

الأول: عباد بمعنى معبَّد، وهذا يشمل الخلق كلَّهم، فكلُّهم معبدون تجري عليهم أحكام الله ﷻ وأقداره، شاؤوا أم أَبَوْا.

الثاني: عباد بمعنى عابد، وهذا هو المقصود وهو المطلوب؛ أن يعبد الله ﷻ.

والعبادة ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ: اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[١].

وعرفها الأصوليون بأنها: ما أُمر به شرعًا من غير اضطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي[٢].

وحقيقتها: فعلُ ما أمر الله ﷻ به، وتركُ ما نهى عنه خوفًا منه ﷻ، وعلى نور منه، ورجاءَ ثوابه، وخوفًا من عقابه.

---

(١) العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٤٤).

(٢) . . . .

والعبادة أنواعها كثيرة، فإمَّا أن تكون واجبة وإمَّا أن تكون مستحبَّة، أما المباح فلا يدخل فيها، وليس من العبادة إلَّا بالنية، فإذا نوى الإنسان بأَكْلِه ـ مثلًا ـ أن يتقوَّى على طاعة الله، ويكفَّ نفسه عن الحرام والتطلع لما في أيدي الناس، أُثيب بذلك على نِيَّتِه.

وقوله: «**طُرًّا**» يعني جميعًا[1]، فكلُّهم ـ جِنُّهم وإنسُهم إذا كان مكلَّفًا ـ يجب عليه أن يعبد ربَّه، بامتثال أمره، واجتناب نَهْيِه، خوفًا من عقابه، ورجاءً لثوابه.

قوله: «**أن يعبدوه**» أي: يطيعوا أمرَه ويجتنبوا نهيَه، يخرج من ذلك ما إذا كان يفعل العبادة بدون نية الطاعة، والمعصيةُ فهذه ليست عبادة.

ويفعلوا الفعل الذي به أمز حتما ويتركوا الذي عنه زَجَر

«**برًّا**» البر هو الطاعة، يعني يتبرر بذلك ويكون من الأبرار.

أي ويتبعوا أمره الذي جاء به الرسول ﷺ حتمًا ويتركوا الذي عنه زجر، فالعبادة تنحصر في هذا، فعل المأمور وترك المحظور، ولكن يجب أن يكون على سبيل الخوف والرجاء والمحبة؛ لأن المحبة أمرٌ ضروري لا بد منه، فمحبة المعبود محبةُ ذُلٍّ وخضوع، أمَّا الـمَحبَّات الأخرى كمحبة الطبع أو محبة الحنوّ أو محبة الإلفة أو ما أشبه ذلك، فهذه ليست من العبادة.

فالمحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة خاصة، وهي التي تقتضي الذلَّ والخضوع والخوف والرجاء، وهذه لا يجوز أن تكون إلَّا لله ﷻ فهي محبة عبادة.

وهناك محبة تابعة لها، مثل محبة الطائع، أو محبة الرسول ﷺ، ومحبة أهل الخير والإيمان فهي محبة لله وفي الله.

---

(١) انظر: مختار الصحاح (ص١٨٩).

القسم الثاني: محبة طبيعية، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للشراب، ومحبة حنو مثل محبة الوالد لولده، ومحبة تقدير مثل محبة الولد لوالده، ومحبة إلفة وغير ذلك.

فهذه المحابُّ لا ضير على الإنسان فيها، بخلاف الأولى فإنه يجب أن تكون لله ﷻ خالصةً، ولا يجوز أن يُفرِّط فيها.

إذًا العبادة هي التي خُلق لها الإنسان، وتجب عليه كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فقضى يعني أمر وألزم وأوجب، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، أي أن تكون العبادة خالصةً له، والأمر بالعبادة كثير في كتاب الله ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، والآيات والأوامر فيها كثيرة، فهي التي خُلق الناس لها، وخُلقت الجنة والنار من أجل ذلك، فمَن عَبَدَ اللهَ وأطاعه أثابه الله ﷻ في الدنيا والآخرة، ومن عصاه فليس بين الله وبين خلقه صلةٌ إلَّا بطاعته واتِّباع أمره، فيعذبه العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

فصل
في الكلام على القضاء والقدر غير ما تقدم

وكل ما قَدَّرَ أو قضاه ... فواقعٌ حتمًا كما قضاه

يعني أن الأمر الذي أراده الله ﷻ كونًا وقدرًا لا بد من وقوعه، فلا يتغير ولا يتبدل، فقضاءُ الله ﷻ قد علمه قبل وجود الكون كلِّه، وكتبه، ثم شاءه وخلقه، فلا يخرج عن ذلك شيء أصلًا.

وخلق لهذه الأمور أسبابًا، فالمسبب والسبب كلاهما مخلوق لله ﷻ، ومقدَّر له ومكتوب ولا يتغير، لهذا قد يتخلف السبب، وقد يكون السبب معه سبب آخر وهكذا.

وهذا العموم «**وكل ما قدر أو قضاه**»: هل هناك فرق بين القضاء والقدر؟

كل ما قُدر هو قضاء، القدر مأخوذ من القُدرة والتقدير، يعني أنه يأتي على قدرٍ معيَّنٍ وفي وقت معين لا يتعدى ذلك ولا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدَّم ولا يتأخر.

أمَّا القضاء فيكون للأمر الذي فرغ منه، وقد يكون مطابقًا للقدر، يعني أنه فرغ منه ﷻ في العلم والكتابة وكذلك المشيئة والخلق.

قوله: «**فواقع حتمًا كما قضاه**» يعني بلا زيادة ولا نقص ولا يتخلف، واقع حيث قضاه وقدَّره ﷻ فلا بد منه، ولكن لا يعلمه العباد حتى يقع، فإذا وقع عُلم أن هذا الذي قدَّره الله ﷻ.

وليس واجباً على العبد الرضا بكل مَقْضِيٍّ ولكن بالقضا

«**المقضي**» هو المفعول الذي يكون أثرًا لفعل الله ﷻ، يعني هو الذي ترتب على فعل الله، فيكون هذا للمخلوق، هذا ما يرضي به إذا كان معصية، ولا يجوز أن يرضى الإنسان بالمعصية بل يكرهها ويبغضها ويتوب منها.

أمَّا القضاء الذي هو فِعلُ الله فيجب أن يرضى به ويسلم له، ففرق بين فعل الله ﷻ وبين المفعول، فالذين لم يفرقوا بين هذا وذاك ضلُّوا، واضطربوا ولم يهتدوا إلى الحق، ولذا ليس واجبًا على العبد الرضا لكل مقضي، فالمقضي المفعول الذي يفعله الله ﷻ ويكون مفعولًا لفعله ولكن بالقضاء، الذي هو فعله.

وهذا يجب أن يرضى به؛ لأنه من فعله تعالى، وفعل الله تعالى كلُّه مرضي وكلُّه حق وكلُّه عدل؛ فإنه يفعل بحكمة وعدل جلَّ وعلا، ويضع الأمور في مواضعها.

لأنه مِنْ فعله تعالى وذاك من فعل الذي تقالى

قوله: «**وذاك**» يعني المقضي الذي يقول: ليس واجبًا على العبد الرضا لكل مقضي، «**وذاك من فعل الذي تقالى**» يعني فعل العبد أو فعل أي مقضي، يعني الشيء الذي انفصل وكان أثرًا لفعل الله جلَّ وعلا وذلك لا يلزم.

ثم لا يجوز الاحتجاج بالقدر، فيجب أن يفعل الإنسان المأمور فإذا وقع له شيء يصبر عليه ويحتسب، وإذا أذنب وجب أن يتوب، ولكن إذا أُصيب بمصيبة فلا بأس أن يحتج بالقدر فيقول: هذا قَدَرٌ والحمد لله! ولا حيلة فيه، فالمقدَّر لا بد أن يمضي وأن يقع، بخلاف الذنب؛ لأن الذنب له مخرج منه وهو التوبة، فالاحتجاج بالقدر يكون على المصائب

ولا يكون على المعايب التي هي الذنوب[١]، فالذنوب يجب على العبد أن يتوب منها، كما سيأتي.

لهذا احتجَّ آدم على موسى لما خاصمه، قال: «**لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: كم وجدت بين خلقي وبين قول الله ﷻ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١]؟ كم وجدت ذلك مكتوباً عندك في التوراة؟ قال: وجدته مكتوبًا قبل أن تُخلق بأربعين سنة، فقال: أتلومني على شيء كُتب عليَّ قبل أن أُخلق بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى**»[٢]. يعني غلبه بالحجة.

فعلى الإنسان إذا فعل فعلًا من المخالفات أن يتوب، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له[٣]، فلا يجوز أن يُلام على ذنبٍ قد تاب منه ولا يُعيَّر به، فإن فَعَلَ فقد عصى وخالف الأمر، ولكن المصيبة التي وقعت لآدم هي خروجه من الجنة، هذا الذي قال موسى: لم أخرجتنا ونفسك من الجنة؟

هذه ليست إليه ولكنها ترتبت على الذنب، فقال له هذه: مصيبة وقعت لي ولا حيلة في ردِّها ولا تلافيها، وإنما نُسلم لقضاء ربِّنا ونؤمن به، ونرضى بفعله جلَّ وعلا وتقديره، أمَّا أفعالنا فيجب أن نتوب منها، وإذا تاب الإنسان فليس لأحد أن يعترض عليه أو أن يعيره أو أن يلومه، وذلك لو كان المقصود بالذنب لقال له آدم: أنت موسى لماذا تقتل نفسًا بغير حق؟ لكن آدم يعلم أن هذا لا يجوز كما أن موسى يعلم أن اللوم على الذنب المتوب منه لا يجوز، ولا يجوز أن يتصور إنسان أن موسى عليه السلام لام آدم على الذنب؛ لأن الله جلَّ وعلا يقول: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ

(١) انظر: شفاء العليل (ص١٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠).

عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢] فتاب عليه واجتباه بعد ما فعل، فمعنى ذلك أنه مُحي عنه الذنب، فلا يجوز أن يُلام عليه.

فصل
في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها

ويَفسُق المذنب بالكبيرةِ كذا إذا أصرَّ بالصغيرةِ

أي يكون فاسقًا بارتكابه للكبيرة، والفاسق هو الخارج عن الطاعة، ولهذا سُميت بعضُ الدوابِّ فواسِقَ؛ لأنها خرجت عن طبعها وعمَّا كان عليه غيرها من الدواب، بالإفساد وغير ذلك.

ويفسق المذنب بالكبيرة، والكبيرة كل ذنب توعد عليه بالنار أو رُتِّب عليه حدٌّ في الدنيا[١]، أو قيل لفاعله: «ليس منا» أو تبرَّأ منه الله أو الرسول ﷺ، ونحو ذلك، أمَّا إحصاؤها بالعدِّ فهذا قد يتعذَّر، وأمَّا قوله ﷺ «الموبقات سبع» أو «**اجتَنِبُوا السبعَ الموبقات**»[٢]؛ فليس المقصود حصرها في هذا.

ولذا جاء عن ابن عباس أنه قال: «**الكبائر: هن إلى السبعين أقرب منهن إلى السبع**» وفي رواية: «**إلى السبعمئة**»[٣].

وقد حاول كثير من العلماء إحصاءها بالعدِّ وبالدليل، وأوصلها بعضهم إلى سبعمائة كبيرة، والحقيقة أنها لا حصرَ لها؛ لأن الكبائر تكون كبائر ظاهرة بالفعل، يعني بالجوراح، وتكون بالقلب مثل الحسد والغل وغيرها، وهي كثيرة، وقد لا تكون منحصرة؛ لهذا حُصرت

(١) انظر: الكبائر للبرديجي (ص١١٣).
(٢) أخرجه البخاي (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٢٤٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٧).

بالتعريف كما ذُكر، فكلُّ كبيرة يفعلها الإنسان يفسق بها، يكون فاسقًا، وإذا تاب فلا يجوز أن تُذكر له كما سبق.

وكذلك الصغيرة إذا أصرَّ عليها، والإصرار أن يلازمها، يفعلها مكرِّرًا لها، فإذا فعل ذلك كان فاسقًا، وكما ورد عن ابن عباس أنه قال: «لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار»[1] وكذلك قال غيره.

فالصغائر هي ما عدا الكبائر، يقول الله جلَّ وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، دلَّت الآية على أن الذي يكفر بالصلاة وبالطاعة أنها غير الكبيرة؛ لأنه قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يعني يكفّر ما عدا هذه، أمَّا هذه فلا بد من التوبة فيها.

والتوبة هي الإقلاع عن الذنب، والندم على الوقوع فيه والعزيمة الأكيدة على أنه لا يعاوده، وإن كان الذنب يتعلق بآخر، فيجب أن يرضى، وإلَّا لا تصح التوبة إلَّا إذا تعذَّر ذلك بأن يموت وما أشبه ذلك، وإلَّا لا بد من رضائه إمَّا بردِّ ما أخذ منه أو بتمكينه منه بأن يقتصَّ يقول: أنا فعلت لك كذا وخذ حقَّك منِّي، هل يمكن أن يكون الإنسان هكذا؟ إذا كان يخاف الله ﷻ فإنه يجب أن يكون كذلك.

أمَّا إذا كان حق الآدمي مالًا فإنه يردُّه، فإن لم يتمكَّن رَدَّه على ورثته، فإن غاب ولم يعلم أين هو ولا يعرف له وارثًا أو قريبًا، تصدق بالمال بنيَّةِ أنه عن صاحبه، وإذا حضر يومًا من الأيام أخبره بأنه تصدق بحقِّه الذي له عنده بنية أنه عنه، فإن قبل ذلك وإلَّا أعطاه حقَّه، وتكون الصدقة له، هذا مخرج من الحقوق التي يُجهل صاحبُها.

الصغائر إذًا غير محصورة كالكبائر.

---

(١) مسند الشهاب للقضاعي (٨٥٣).

لا يخرج المرء من الإيمان بموبقات الذنب والعصيان

وهذا خلافًا للخوارج والمعتزلة، وهو مذهب أهل السنة؛ أن الإنسان لا يخرج بفعل الكبيرة ولا فعل أي ذنب إلَّا الشركَ والرِّدَّةَ، نسأل الله العافية، فالردة معناها أن يخرج من الإيمان الذي دخل الإسلام به، أو يفعل فعلًا مكفِّرًا؛ كأن يسبَّ الله!! أن يسب الرسول!! أو يمتهن القرآن كتابَ الله ﷻ وما أشبه ذلك!

وقد اختُلف، هل له توبة أو أنه لا بد من تنفيذ الحكم فيه في الدنيا؟ كالذي يسبُّ الرسول ﷺ ومسبَّةُ الله أعظم، وهذا كثيرًا ما يقع من الناس الآن؛ السب والشتم واللعن، قد يلعن الدين وقد يلعن الرب تعالى الله وتقدس! وهذا من أعظم الإجرام؛ لذا قال كثير من الأئمة بأنه لا توبة له، ويجب أن يُقتل على كل حال، وسواءٌ كان مسلمًا أو نصرانيًّا أو غير ذلك، لكن من الذي يقتله؟ الذي يقتله الإمام، ولا يجوز ذلك لآحاد الناس؛ لأن هذا يترتب عليه فوضى، فهذه مهمة الإمام الذي يكون أمير البلد أو الإمام الأعظم أو نائبه الذي يُنِيبُه.

قوله: «**بموبقات الذَّنب والعصيان**» الموبقات اسم لما يوقع في الهلكة، أوبقه أهلكه، فالذنب ينقسم إلى قسمين؛ ذنب يوبق، وذنب لا يوبق ولكنه يقدح في الإيمان ويقدح في خلق الإنسان واستقامته.

الخوارج يقولون: إنه يخرج من الإيمان، ويكون كافرًا لفعل الذنب.

والمعتزلة يقولون: إنه يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، يكون بين الكفر والإيمان، لا مؤمن ولا كافر[1]، وهذه من خصائصهم ولم يقل ذلك أحد غيرهم؛ لأن هذا أمر لا حقيقة له، هذا في التسمية ولكنهم في الحكم متفقون مع الخوارج، والحكم أنه في النار يوم القيامة إذا مات

(١) انظر: شرح الطحاوية (ص٢٩٨).

فهو في النار، أما في الدنيا فهم يقولون: إنه لا مؤمن ولا كافر، أي في منزلة بين المنزلتين، وهذا أحد الأصول التي انفردوا بها[١].

وواجب عليه أن يتوبا مِنْ كلِّ ما جرَّ عليه حُوبا

أي أنه واجبٌ على العبد أن يتوب، فمن ترك التوبة فهو آثم، وهذا ذنب آخر؛ ولهذا قال: «**من كل ما جرَّ عليه حوبا**».

وقوله: «**من كل**» عموم، يعني من كل ذنب، و«الحوب» هو الإثم[٢]، فالتوبة واجبة حتمًا، ولهذا يقول الله جلَّ وعلا: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

والتوبة النصوح: هي التي تشتمل على الشروط بأن يقلع عن الذنب ويندم على فعله ووقوعه فيه، ويعزم على أنه لا يعاوده، وإذا كان الذنب حقًّا لمسلم وجب أن يرضيه بأن يرد الذي أخذه أو يستحله، يقول: اجعلني في حِلٍّ.

فواجب على كل عبد أن يتوب من الذنب الذي وقع فيه، فتكون التوبة عامة وتكون خاصة، والتوبة هي الرجوع إلى الله جلَّ وعلا والتبري من الذنب بأن يتوب مثل ما سبق.

ويَقبل المولى بمحض الفضل من غير عبد كافر مُنْفَضِلِ

يعني أن الكافر لا تُقبل توبته حتى يؤمن، فالكفر لا يُقبل معه عمل، وإنما هذا القبول لمن هو مؤمن إذا وقع في الذنب فتاب، فإن الله يتوب عليه، ولهذا يقول جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص٦٩٥).
(٢) انظر: مختار الصحاح (٨٣).

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذه الآية من كل ذنب حتى المشرك إذا تاب من الشرك رضي الله توبته بهذا الشرط، أمَّا إذا بقي على الشرك وهو يتوب من ذنب من الذنوب، فهذا لا تُقبل توبته، وهذا مقصود قوله: «**من غير عبد كافر**» يعني أن الكافر لا تقبل توبته حتى يتوب من كفره ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، إذا فعل ذلك قَبِلَ الله توبتَه وإن كان كفر.

قوله: «**منفصل**»؛ أي: عن الإيمان.

ما لم يتب من كفره بضده فيرتجع عن شركه وصَدِّه

يَعْنِي أن الذي لا يتوب من الكفر والشرك لا تقبل توبته من الذنوب.

وقوله: «**بضده**» أي بضد الكفر، وهو الإيمان، وإذا لم يؤمن فلا تقبل توبه من الذنوب.

ومن يمت ولم يتُبْ من الخطا فأمره مُفَوَّض لذي العطا

يعني من مات على الذنب فإنه لا يُحكم عليه بأنه في النار، ونقول: أمرُه إلى الله، إن شاء عذَّبه وإن شاء تاب عليه بلا عذاب، فإذا تاب الله على العبد أدخله الجنة، هذا في أهل الإيمان، خلافًا لأهل الباطل من المعتزلة والخوارج الذين يقولون: صاحب الكبيرة إذا مات عليها فهو في النار ولا يجوز أنه يُعفى عنه، وهذا بناء على أصلهم.

أمَّا الخوارج فهم أهل جهل وتخبُّط، ويُنزلون الآيات على غير ما ينزلها الله ﷻ ورسوله، فيحكمون على المسلمين بأنهم كفروا بمجرَّد الذنوب، ولا يجوز أن تنالهم أيضًا شفاعةٌ؛ ولهذا ينكرون الشفاعة للمذنبين يوم القيامة، وإنما يثبتون الشفاعة الكبرى فقط؛ لأنها ليس فيها إلَّا الفصل بين الناس، فيدخل العبد الجنة أو النار، هذه لا ينكرونها وإنما ينكرون أن يخرج أحد من النار بعد أن يدخلها؛ لأن الله ﷻ

يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢] ومَن أدخله النار فقد أخزاه، والمخزى أن يكون في النار، يقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، ونحو ذلك، هذه استدلالاتهم.

ولهذا نقول: هم جهلة، يضعون الآيات في غير موضعها، ويحكمون على الله بأنه يجب أن يفعل!! ويقولون: الناس يجب أن يكونوا بررة أو فجرة فقط ليس هناك وسط عندهم، الإنسان إمَّا أن يكون بَرًّا تقيًّا أو يكون فاجرًا شقيًّا، هذا حكمُهم في الناس، أمَّا أن يكون هناك وسط عنده ذنوب وحسنات، فهذا لا يقبلونه، وأكثر الناس في هذا، يعني أكثر الناس ليس تقيًّا بَرًّا وليس فاجرًا شقيًّا، عنده ذنوب وعنده حسنات، ولكنه لم يخرج من الإيمان، فهذا القسم لا يقبلونه بل يجعلونه كافرًا؛ ولهذا يقتلون الناس.

أمَّا المعتزلة فيوجبون على الله ما لا يجب عليه، يقولون: يجب أن يعاقب المذنب ويجب أن يثيب الطائع، ويسمون هذا وجوب تنفيذ الوعد والوعيد، فيحتجون على هذا بأن الله لا يخلف الميعاد، لا يخلف وعده ولا وعيده[1].

ولكن إخلاف الوعيد هذا من باب الكرم؛ فعند العرب لما قال الشاعر:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي[2]

فهو يتمدح بهذا، يقول: أُخْلِفُ التوعد والوعيد، أمَّا الوعد فأُنجزه ولا أخلفه، فالوعد بالخير والإيعاد بالشر، والله هو الكريم الجواد ﷻ

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة (ص٦٠٩).

(٢) البيت من الطويل، وهو لعامر بن الطفيل. انظر: لسان العرب (١٤/ ٢٢٣)، تاج العروس (١/ ٢٠٧).

ولا يجوز للعباد أن يحكموا على الله بأن يفعل كذا ولا يفعل كذا؛ ولهذا جاء عن النبي ﷺ أنه كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خَلِّني وربي أبُعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يُدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالـمًا، أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار.

قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لَتكلَّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته[١].

فلا يجوز أن يُحكم على الله بشيء، فالله هو الحاكم والذي يفعل ما يشاء، هذا مجتهد لم ينفعه اجتهاده مع أنه تكلم هذه الكلمة من باب بغض المعاصي وإنكارها وأمره للخير ونهيه عن الشر، ولكن لا يجوز أن يتجرأ على الله، ولا يجوز أن يحكم على الله، وهؤلاء يحكمون على الله أنه يجب أن يفعل كذا ولا يفعل كذا، وبئس ما صاروا إليه؛ لهذا يقول:

ويقبل المولى بمحض الفضل من غير عبد كافر منفصل

يعني منفصل عن الإيمان، يقبل جلَّ وعلا توبة التائب مهما كان ذنبه.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن القاتل لا تقبل توبته، كذلك جاء عن غيره أن القاتل لا تقبل توبته؛ لقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] كم في هذا من وعيد![٢]

---

(١) أخرجه أحمد (٨٢٩٢)، وأبو داود (٤٩٠١).

(٢) انظر: المحرر الوجيز (٢/ ٩٥)، البحر المحيط (٤/ ٢٨).

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول[١]: إن هذا لا بد فيه من التفصيل، فالذي يقتل يتعلق به حقوق عدة: حق لولي المقتول، وهذا الحق يسقط إمَّا بالقصاص وإمَّا بالدية وإما بالعفو، ويبقى حق الله، فالله له حق في هذا؛ لأن هذه مخالفة، هذا هو الذي فيه الخلاف هل الله عَزَّوَجَلَّ يعفو أو لا يعفو؟

والصحيح أنه إذا تاب صادقًا مقبلًا أن الله يقبل توبته، يبقى حق المقتول، هذا لا حيلة فيه، هذا الذي لا توبة منه، فيأتي يوم القيامة ممسكًا قاتلَه يقول: يا رب، سَلْ هذا فيمَ قتلني[٢].

وجاء في الحديث الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل ذنب عسى الله أن يعفو عنه، إلَّا الرجل يموت مشركًا أو يقتل مسلمًا بلا حق**»[٣].

فيُحمل هذا على الحق الذي هو للمقتول، لكن إذا شاء الله عَزَّوَجَلَّ أرضى المقتول، فالأمر إليه جلَّ وعلا؛ لهذا جاء في الحديث ـ وهذا قد يكون لبعض الناس وليس لكل قاتل ـ أنه إذا جاء به متعلقًا به ماسكًا رأسه يقول: سل هذا فيم قتلني؟ فيمسكه فيقال له: ارفع رأسك فيرى قصرًا مرتفعًا فيقول: يا رب لمن هذا؟ فيقول: هذا لمن عفا عن أخيه، فيعفو[٤].

ولكن هذا ليس لكل أحد، قد يكون لآحاد الناس، المقصود أن حقوق الخلق بُنيت على المقاصة لا بد منها وليس هذا في القتل فقط، كل حق لآدمي لا بد من أدائه يوم القيامة، والأداء إمَّا بالحسنات أو بالسيئات، يعني يؤخذ من حسنات الظالم حتى يُستوفى للمظلوم؛ ولهذا

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٩٥).
(٢) أخرجه أحمد (١٩٤١)، والنسائي (٣٩٩٨).
(٣) سبق تخريجه (ص...).
(٤) .....

جاء في الحديث أن الذي يخلف الغازي في أهله بسوء أنه يوقف يوم القيامة ويقال للذي غزا خذ من حسناته ما شئت، ثم التفت إليهم رسول الله ﷺ وقال: ما ظنكم؟[١].

أي: أترون يترك له شيئا؟ معناه أنه يأخذ حسناته كلها، هذا عِظَمُ مصيبة مثل هذا، والمقصود أن حقوق العباد لا تترك، بل لا بد أن تؤدى.

فلهذا قالوا: الظلم ثلاثة دواوين؛ ظلم لا يترك الله منه شيئًا وهو حقوق الناس، وظلمٌ لا يعبأ الله به وهو الذنوب التي تكون بين العبد وبين ربه، إذا شاء عفا عنها بلا مؤاخذة، وظلمٌ لا يغفر الله منه شيئًا وهو الشرك، الذي يشرك بالله فهو في النار ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨][٢].

فجعل المغفرة لمن هو غير مشرك، أمَّا المشرك فلا يغفر له قطعًا، على هذا إذا مات المشرك على الشرك فهو في النار مقطوع بذلك.

فالذي يموت على ذنب غير الشرك فأمرُه مفوَّض إلى الله؛ إن شاء عفا بلا مؤاخذة وإن شاء أخذ، فإذا أخذ يكون في النار حتى يأخذ نصيبه من الجزاء، ثم بعد ذلك يخرج إلى الجنة، يعني لا يخلَّد فيها، هذا إذا كان مات على إيمان؛ ولهذا قال:

فإن يشأ يعفو وإن شاء انتقم وإن يشأ أعطى وأجزل النعم

لأنه جواد كريم جلَّ وعلا، «**إن شاء انتقم**»: أي عاقبه على ذنبه ثم يخرج من النار إلى الجنة؛ ولهذا تواترت أحاديث رسول الله ﷺ أن

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٩٦)، والنسائي (٣١٩٠).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٧١٧).

كثيراً من المسلمين يدخلون النار، ثم يخرجون منها، وخروجهم منها متفاوت؛ فمنهم من يبقى وقتًا طويلًا، ومنهم من يخرج منها، ثم يُحبس على شفير النار ولا يستطيع أن يلتفت ثم يدعو ربَّه بأن يصرف وجهه عن النار، كما في حديث «آخر من يخرج من النار»[١]، ومنهم من يخرج بالشفاعة، ومنهم بخرج برحمة أرحم الراحمين، ومنهم من يخرج منها حممًا قد احترقوا بالنار، فيُلْقَوْن في نهر في الجنة يقال له نهر الحياة، فينبُتُون فيه كما تَنْبُتُ الحِبَّة في حَميل السيل[٢].

وحميل السيل: هو الغثاء الذي يحمله ثم يرميه على جانب، إذا نبت فيه نبات ينبت بسرعة[٣]، فيكون نباته جزء منه أبيض وجزء منه أخضر؛ لأنه فيه سماد يجعل النبات ينبت بسرعة، المقصود أن هذا تمثيل رسول الله ﷺ لهؤلاء، ثم يكونون من أهل الجنة.

ومنهم من يكتب عليه: عتقاء الرحمن من النار[٤].

(١) تقدم تخريجه (ص....).
(٢) صحيح البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤).
(٣) النهاية في غريب الحديث (١/ ٤٤٢).
(٤) صحيح البخاري (٧٤٣٢).

فصل
في ذكر من قيل بعدم قبول إسلامه
من طوائف أهل العناد والزندقة والإلحاد

وقيل في الدروز والزنادقه وسائر الطوائف المنافقه

أي: لا تقبل توبتهم وإن تابوا؛ لأنهم منافقون ولم يظهروا بتوبتهم أكثر مما كانوا عليه، فهم لا يُعلم صِدقُهم؛ لأنهم يُبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، هذا دينهم وهذا ما هم عليه، وعدد منهم الدروز[١] والنصيرية الباطنية[٢] كلهم على هذا النحو؛ لأن هذه عقيدتهم يخفونها.

و«**الزنديق**» هذا كلمة فارسية معربة، ومعناها المنافق الذي يُبطن الكفر ويظهر الإسلام[٣]، يبطن المخالفة ويظهر الموافقة، فهو كاذب كما قال الله جلَّ وعلا في المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

فهو أضرُّ الخلق على الإسلام والمسلمين؛ لأنهم بينهم ويعرفون المداخل التي تضرُّهم فيكونون مع الكافرين بالنصح وفي الكلام وفي

---

(١) من الفرق التي تفرعت وخرجت من الإسماعيلية، ومنها أخذت أفكارها وعقائدها. وكانت نشأتها أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي تولى ملك مصر بعد وفاة أبيه سنة (٣٨٦ هـ). انظر: الشيعة والتشيع، لإحسان إلهي (ص٢٣٦).

(٢) هم من الفرق الباطنية، أتباع أبي شعيب محمد بن نصر البصري النميري، الذي ادعى الربوبية وأباح المحرمات، وقالوا بالحلول والتناسخ، وأنكروا البعث والحساب. انظر: فرق الشيعة للنوبختي (ص١٤٧)، وسماها النميرية بدل النصيرية.

(٣) انظر: تاج العروس (٢٥/٤١٨).

الفعل، فضررهم عظيم؛ ولهذا جاء في أول سورة البقرة ذِكرُ المؤمنين بثلاث آيات، والكافرين في آيتين والمنافقين في ثلاث عشرة آية[١].

وذكرهم في سورة التوبة كثيرًا وحذَّر منهم ﷻ نزل: ومنهم، ومنهم..

ولهذا يسميها بعض العلماء الفاضحة التي فضحت المنافقين[٢]، وذكرهم أيضًا في سورة المنافقين وفي غيرها من السور كثير، وأخبر أن صفاتهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] يعني عندهم فصاحة وبلاغة ولهم أُبَّهات ومناظر تعجب الناظر ولكنهم مثل الخشب المسنَّدة، الخشب التي تسند على الجدار، ما الفائدة منها؟! هي عِبْءٌ لا خيرَ فيها ولا فائدة ولا نفع بل هي مضرة، فهم هكذا صفتُهم مثل الخُشُب المسنَّدة، عندهم أنفة وكبر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥] فهم زاهدون في الخير وفي طلبه، وهم أشرُّ خلق الله.

ولهذا أخبر الله ﷻ عنهم أنهم في الدرك الأسفل من النار، تحت الكافرين، فالنار دركات واحدة تحت الأخرى، خلاف الجنة فإنها درجات، الدرك هو الذي يذهب إلى أسفل، والدرج هو الذي يصعد فوق[٣].

وذكر هؤلاء مثل سائر الطوائف المنافقة؛ كالدروز والزنادقة والنصيرية والرافضة ومثل الإسماعيلية[٤]، وغيرهم من الباطنية الذين يُبطنون الشر ولا يظهرونه، وهؤلاء الذين يقولون: إن التقية هي الدين ومن لا تقية له

---

(١) انظر: تفسير مجاهد (ص١٩٥).
(٢) انظر: محاسن التأويل (٥/ ٣٤٣)، والتحرير والتنوير (١٠/ ٩٥).
(٣) انظر: لسان العرب (١٠/ ٤٢٢).
(٤) فرقة من الشيعة قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر بن محمد، وأنكرت موته في حياة أبيه، وقالت: إن ذلك كان من أبيه للتلبيس. انظر: الملل والنحل (١/ ١٩١)، فرق الشيعة (ص١١٥).

لا دين له[١]، والتقية يعني النفاق وليس التقية التي ذكرها الله ﷻ ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨] هذا إذا أُرغم الإنسان على القول بالكفر، وكان قلبُه مطمئنًا بالإيمان، فيدرأ عن نفسه بالكلام الذي يُرضيهم، فهذا ليس دائمًا، وإنما في هذه الحالة فقط.

وكل داع لابتداعٍ يُقتل ... كمن تكرَّر نكثُه لا يُقبل
لأنه لم يُبدِ من إيمانه ... إلا الذي أذاع من لسانه

يعني أن الرأس في البدعة الداعي لها لا تُقبل توبته، والصحيح أنه إذا تاب، سواءٌ كان منافقًا أو زنديقًا أو كان داعية، وتاب وظهرت صحة توبته، أنها تقبل.

وقوله: «**كمن تكرر نَكثُه لا يقبل**» يعني الذي يتكرر النكث منه؛ بأن يتوب ثم يرجع، ثم يتوب ثم يرجع، يقول: لا تُقبل توبته، ومقصوده هنا في الدنيا، يعني لا تُقبل توبته في الدنيا، أي أنه يُقتل ولكن ـ كما مضى ـ فإن القتل يكون للإمام وليس للآحاد الناس.

وهذا شأنه دائمًا ودينه، فهو لا يُظهر إلَّا الذي كان عليه أولًا، فلا معنى لتوبته.

كملحدٍ وساحرٍ وساحِرَه ... وهم على نياتهم في الآخره

يعني أنهم يُقتلون ثم يُبعثون على نياتهم في الآخرة، فمن كانت نيَّتُه صالحة وتوبته صادقة فسوف ينجو، ومن كان كاذبًا فإنه من أهل النار.

قلت وإن دلتْ دلائلُ الهدى ... كما جرى للعيلبونيْ اهتدى

العيلبوني: نسبة إلى بلد[٢] وهو درزي من رؤساء الدروز، تاب

---

(١) انظر: الكافي للكليني (٢/ ١٣٣).

(٢) قال في لوامع الأنوار (١/ ٤٠١): عيلبون، وهي بليدة ما بين قرية حطين ودير حنا، كانت لطائفة من الدروز ومسكنًا لهم، من أعمال صفد.

وذهب إلى مصر وطلب العلم ثم رجع إلى دمشق وصار يدعو هؤلاء وينشر أسرارهم ويتعبد، وصار رجلًا صالحًا، فمثل هذا تُقبل توبته.

فإنه أذاع من أسرارهم ... ما كان فيه الهَتْك عن أستارهم

يعني من أسرار الدروز، وهم من الباطنية الذين يخفون دينهم كالنصيرية، وكانوا عبدة الحاكم العبيدي يعبدونه ويرون أن الإله حل فيه، وهم أضر على المسلمين من أعدائهم بل أقرب لأعدائهم؛ لهذا ترى كثيرًا من الدروز الآن مع اليهود، كثيرون في جيش اليهود من الدروز، فهم شرُّ عباد الله، نسأل الله العافية.

وكان للدين القويم ناصرا ... فصار منا باطناً وظاهرا

يعني أن العيلبوني ظهر صلاحه وطلبُه العلم وتمكُّنه منه، وصار يدعو قومَه وغيرَهم إلى الخير، فصار من المسلمين ظاهرًا وباطنًا.

وهكذا غيرُه إذا كان على هذه الطريقة فإنه تُقبل توبته، وقد جاء به للتمثيل فقط، وخلاصة القول: أن الزنديق والدرزي والنصيري والباطني والإسماعيلي وغيرهم، إذا تاب وظهرت آثار التوبة عليه أنها تقبل توبته.

فكل زنديق وكل مارقِ ... وجاحدٍ وملحدٍ منافق
إذا استبان نصحه للدين ... فإنه يُقبل عن يقين

هذا هو الصحيح، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1] أن الزنادقة وغيرهم من كل بني آدم إذا تاب صادقًا أنه تقبل توبته، وإذا قُبلت توبته يعني أنه لا يقتل.

دخل في هذا الذين يسبُّون الله ويسبون الرسول، وفي هذا خلاف بين العلماء؛ كثير من العلماء يقول: إن الذي يسب الرسول يجب أن

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٨/ ١٨٦).

يُقتل على كل حال، تاب أو لم يتب، والذي يسب الله أولى أن يُقتل تاب أو لم يتب، وسواء كان مسلمًا أو غير مسلم.

أمَّا الاحتجاج بأن الرسول ﷺ عفا عن بعضهم؛ مثل عبد الله بن أبي السرح؛ كان ممن ارتد وأهدر رسول الله ﷺ دمه، وكان يسب الرسول ﷺ يقول: أنا الذي كنت أعلّمه.

كذب، هو يعلّم الرسول؟! كان أخو عثمان رضي الله عنه من الرضاعة، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء به عثمان يريد أن يقبل الرسول ﷺ توبته، أوقفه على النبي ﷺ، قال: يا رسول الله، بايع عبد الله، قال: فرفع رأسه، فنظر إليه، ثلاثًا كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟**». فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلَّا أومأت إلينا بعينك؟ قال: «**إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين**»[1].

المقصود أنهم احتجوا به، فقال الذين يقولون لا تقبل توبته: إن هذا للنبي ﷺ في حياته، فإذا عفا فذلك له، أمَّا بعد وفاته فلا يمكن هذا، يجب أن يُقتل على كل حال.

وهذا قول كثير من العلماء، وبعضهم يقول: إنه تقبل توبته وكذلك الذي يسب الدين أو يسب الله ﷻ نعوذ بالله من موجبات غضبه!!

هذا من موجبات غضب الله ﷻ، وابن آدم قد يفقد عقله وفكره ويفقد أخلاقه ويصير أخبث من الكلاب، فمثل هذا لا خيرَ فيه، ولكن إذا عاد تائبًا مستغفرًا تاب الله عليه فلا يكون أسوأ حالًا من المنافق الذي يتوب ويتبين صدقُه.

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٦٧).

فصل
في الكلام على الإيمان واختلاف الناس فيه وتحقيق مذهب السلف في ذلك

إيماننا قول وقصد وعملْ ... تزيده التقوى وينقض بالزلل
ونحن في إيماننا نستثني ... من غير شكٍّ فاستمع واستَبِنِ
نتابع الأخيار من أهل الأثر ... ونقتفي الآثار لا أهلَ الأشر

قوله: «**إيماننا قول وقصد وعمل**» هذه أركان الإيمان، وكلها إيمان، ولا بد من اجتماعها، وإذا فقد واحدٌ منها فُقد الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الآية [البقرة: ١٣٦].

وقال الرسول ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله**» الحديث[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٣].

والاستثناء في الإيمان هو قول أهل السنة من غير شك؛ لأن العبد لا يأتي بما أُمر على الوجه الأتمِّ، ولأنه لا يدري على ماذا يموت، واتباعاً للسلف في ذلك، والآثار عنهم كثيرة، والذين ينكرون الاستثناء

---

(١) ...

هم أهل البدع، وفي حديث رسول الله ﷺ، لما سلّم على أموات المسلمين قال: «**وإنا بكم إن شاء الله لاحقون**»[١]، وقال الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

ولا تقل: إيماننا مخلوق ... ولا قديمٌ هكذا مطلوق
فإنه يشملُ للصلاة ... ونحوها من سائر الطاعات
ففعلنا نحو الركوع محدث ... وكل قرآن قديمٌ فابحثوا
ووكّل الله من الكرام ... إثنين حافظين للأنام
فيكتبان كل أفعال الورى ... كما أتى في النص من غير امترا

قوله: «**ولا تقل إيماننا مخلوق**» لأنه يدخل فيه الصلاة وفيها القراءة ويدخل فيه قراءة القرآن وغير ذلك، ولكن أفعالنا مخلوقة لله تعالى مثل الركوع والقيام والسجود وغير ذلك.

وقوله: «**وكل قران قديم**»، سبق أن هذا لا يوافق عليه، فالقرآن لا يقال: إنه قديم؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٦]، ولكن جنس كلام الله تعالى أزلي، أما آحاده فهي جديدة.

والكرام الكاتبون يكتبون أعمال بني آدم، وكَّلَهم الله تعالى بذلك، قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨]. وفي الحديث: «**إن معكم من لا يفارقكم يكتبان جميع أعمال بني آدم من قول وغيره، ثم ينشر له يوم القيامة**»[٢].

(١) ...
(٢) ...

الباب الرابع

في ذكر بعض السمعيات
من ذكر البرزخ وأشراط الساعة والحشر والنشور

وكل ما صح من الأخبار ... أو جاء في التنزيل والآثار
من فتنة البرزخ والقبور ... وما أتى في ذا منَ الأمور

فصل
في ذكر الروح والكلام عليها

وأن أرواح الورى لم تُعدمِ ... مغ كونها مخلوقةً فاستفهم
فكل ما عن سيد الخلق ورد ... من أمرِ هذا الباب حقٌّ لا يُرد

فكل ما صح عن النبي ﷺ، وما في كتاب الله من الإخبار بالغيب؛ وجب الإيمان به، سواء ما يتعلق بالجزاء أو ما يكون مما يحدثه الله تعالى مثل أشراط الساعة، وكذا ما يكون من البعث والنشور والحساب وغير ذلك.

وقد جاء تفصيل ذلك في كتاب الله تعالى، وفي أحاديث الرسول ﷺ، ومن ذلك عذاب القبر ونعيمه وفتنته، وذلك أن للبرزخ حياة، والأرواح حية تألم وتنعم، وكذلك البدن وإن كان يعود تراباً فإنه يحس بالألم وبالنعيم، وأدلة ذلك كثيرة.

فالروح مخلوقة لله تعالى وموتها مفارقتها للبدن ثم تعود إلى بدنها في القبر، فيحصل النعيم أو العذاب على الروح والبدن على القول الصحيح الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة.

فصل
في أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ومجيئها

وما أتى في النص من أشراط ... فكله حق بلا شِطاط
منها الإمام الخاتمُ الفصيح ... محمدُ المهديُّ والمسيح
وأنه يَقتل للدجال ... ببابِ لُدُّ خلْ عنْ جدال
وأمْرَ يأجوجَ ومأجوجَ اثْبِتِ ... وأنه حق كهدم الكعبة
وأن منها آيةَ الدخان ... وأنه يذهب بالقرآن
طلوع شمس الأفقِ من دَبور ... كذات أجيادِ على المشهور
وآخر الآيات حشر النار ... كما أتى في محكم الأخبار
فكلها صحت بها الأخبار ... وسَطَّرتْ آثارَها الأخيارُ

قوله: «**أشراط الساعة**» هي علامات قربها وهذه التي ذكرت هي من العلامات الكبرى:

منها: خروج المهدي، واسمه محمد بن عبد الله، وهو من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومنها: خروج الدجال، وهو أعظم كاذبٍ ويتبعه خلق عظيم.

ومنها: نزول عيسى بن مريم عند باب لد.

ومنها: خروج يأجوج ومأجوج، وهم المفسدون في الأرض ولهم خروجات متعددة وآخرها وقت عيسى بن مريم.

ومنها: هدم الكعبة، يهدمها ذو السويقتين الحبشي.

واختلف في الدخان هل مضى أو لا؟ قال الله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ

هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١١].

ومنها: رفع القرآن، فإنه يُسْرى عليه في ليلة، فلا يبقى منه حرف، فمنه بدأ وإليه يعود، وقيل: يعود إليه صفة.

ومنها: خروج الدابة، جاء في حديث أنها تخرج من أجياد[١].

ومنها: طلوع الشمس من المغرب، وكثرت الأحاديث في ذلك.

(١) ....

فصل
في أمر المعاد

واجزم بأمر البعث والنشور ... والحشر جزماً بعد نفخِ الصور
كذا وقوف الخلق للحساب ... والصحف والميزانُ للثواب
كذا الصراط ثم حوضُ المصطفى ... فيا هَنا لمن به نال الشفا
عنه يُذادُ المُفتري كما ورَدْ ... ومن نحا سُبل السلامه لم يُرَدْ
فكن مطيعاً واقْفُ أهلَ الطاعه ... في الحوض والكوثر والشفاعه
فإنها ثابتة للمصطفى ... كغيره من كل أرباب الوفا
مِن عالم كالرسل والأبرار ... سوى التي خُصَّت بذي الأنوار

ويجب الإيمان بالبعث والنشور، فيخرج الناس من قبورهم، ويحشرون حفاةً عراةً غرلًا أي غير مختونين، ثم وقوفهم في المحشر قياماً لرب العالمين، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وهو اليوم الثقيل على الكافرين ثم الحساب، وتُنشر الصحف وهي صحف الأعمال والميزان، توزن الحسنات والسيئات ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٣].

ومن ذلك: الصراط على متن جهنم، ومن فوقه العبور، فناجٍ مسلمٌ، وآخرُ مُكَرْدَسٌ في جهنم.

ومن ذلك: الحوض الذي أُعْطِيَه نبينا ﷺ، يَرِدُه أتباعه، والكوثر فيه ماءٌ مَن شرب منه شربةً لا يظمأ أبداً.

ومن ذلك: الشفاعة العظمى في الموقف، وهي المقام المحمود أُعطيه نبينا ﷺ، وأما الشفاعات الأخرى فهي بعد الحساب، وتكون للرسل وللملائكة وللمؤمنين وللأطفال، وكلُّ ذلك بعد إذن الله لمن يشفع، ورضاه عن المشفوع له، والحقيقة أنها كلها لله تعالى.

فصل
في الكلام على الجنة والنار

وكل إنسان وكل جِنَّةِ ... في دارِ نارٍ أو نعيمِ جنةِ
هما مصير الخلق من كل الورى ... فالنار دارُ من تعدى وافترى

قوله: «**وكل إنسان وكل جِنَّةِ..**» يعني: أن بني آدم وكذلك الجن إمَّا في النار أو الجنة بعد الموت، ولا دار غير هاتين الدارين؛ إما دار نعيم أو دار جحيم، نسأل الله العافية!

قوله: «**في دار نار أو نعيم جنة**» أي أن الناس والجن ينقسمون إلى قسمين: إمَّا أن يكونوا أشقياء أو سعداء.

وهذا مبنيٌّ على ما في الدنيا من الأعمال التي ينفذونها من أمر الله جلَّ وعلا وأمر رسوله ﷺ، فالله قد أرسل لهم الرسل وأقام عليهم الحجج بما خلقه فيهم، وما خلقه حولهم، وما أرسله إليهم من الرسل، وكذلك أنزل عليهم الكتب، فالمؤمنون يُخلدون في الجنة، والكافرون يخلدون في النار، ما دامت السماوات والأرض، لا موت ولا خروج منهما.

وأما الأعراف؛ فهو مرتفع بين الجنة والنار يبقى عليه أناس إلى وقتٍ ما، ثم لا يبقون فيه، والظاهر أنهم يدخلون الجنة؛ لقوله جل وعلا: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف:٤٦] جعل الله فيهم الطمع؛ لأنه جلَّ وعلا سيرحمهم بإذنه تعالى.

أمَّا من هم؟ فقيل: إنهم قومٌ اسْتَوَتْ حسناتهم وسيئاتهم.

وقيل: إنهم قوم خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله بدون إذن والديهم فقُتلوا في سبيل الله، فمنعهم خروجهم بدون إذن والديهم دخولَ الجنة، ومنعهم قتلهم بالشهادة أن يدخلوا النار، فيبقون حتى يقضي الله جل وعلا بينهم[١].

ومن عصى بذنبه لم يُخلَدِ وإن دخلها يا بوارَ المعتدي

يعني: أهل المعاصي والكبائر ـ ما عدا الشرك ـ لا يخلَّدون في النار، ولكنَّ كثيرًا منهم يدخل النار ويتفاوتون في بقائهم في النار؛ فمنهم من يبقى طويلًا ومنهم من لا يبقى طويلاً، حسب إجرامهم واستمرارهم على ذلك.

وقوله: «**يا بوار المعتدي**» البوار هو الهلاك[٢]، أي يا هلاكَ من اعتدى على أمر الله جلَّ وعلا وتعدَّى! فإنه يكون هالكًا، والإنسان لا قوة له على النار، فهي شديدة جدًّا. وقد جعلها الله جزاء مَن تعدَّى حدود الله.

وقد توعد الله جلَّ وعلا كثيرًا من الناس بالنار؛ كالذين يأكلون الربا؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، والذين يأكلون أموال اليتامى قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وغير ذلك ممن هو تارك لأمر الله.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ٤٥٧)، تفسير القرطبي (٧/ ٢١٢).

(٢) لسان العرب (٤/ ٨٦).

وجنةُ النعيم للأبرار مصونة عن سائر الكفار

قوله: «**وجنة النعيم للأبرار**» الأبرار جمع بَرٍّ، والبَرُّ: هو الذي يقوم بأمر الله جلَّ وعلا، وكذلك بأمر عباده؛ يعني يؤدي حق الله وحق العباد.

قوله: «**مصونة عن سائر الكفار**» يعني: أن الكفار لا يدخلون الجنة كما ثبتت النصوص في ذلك، وكذلك أجمع على ذلك أهل العلم، وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن الرسول ﷺ أمر بلالًا أن ينادي في الناس: «**لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمة**»[(١)]، وفي رواية: «**إلا نفس مؤمنة**»[(٢)]، وتكرر هذا منه ﷺ، أنه كان ينادي في ذلك: «**ألا إنه لا يدخل الجنة إلَّا نفسٌ مؤمنة**»، وهذا أمرٌ مجمع عليه.

واجزم بأن النار كالجنةِ في وجودها وأنها لم تُخْلَقِ

وهذا خلافًا لأهل البدع من المعتزلة ونحوهم، الذين يقولون: إن الجنة لا وجود لها الآن، وإنما ستوجد، بناءً على أصلهم الفاسد الذي أضَّلوه وقالوا: إنه يجب على الله كذا، ويجب عليه كذا، وقاسوا أفعال الله على أفعالهم[(٣)]؛ قالوا: لو أن عاقلًا من الناس ـ مثلًا ـ بنى بيتًا وأعدَّ فيه ما يحتاج إليه؛ من فرش، وأكل، وغيره، ثم أغلقها لَكان هذا عبثًا، وعُدَّ سفيهًا، يقولون: كذلك الجنة والنار، الله لم يخلقها ثم يتركها بلا سكان.

وهذا كله من الضلال البيِّن والحكم على الله جلَّ وعلا بالرأي الفاسد وبالعقل القاصر، فهم يستحقون جزاء ما عملوا وما تعدَّوْا على

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).
(٢) أخرجه أحمد (٥٩٤).
(٣) انظر: الملل والنحل (١/ ٧٣)، شرح الطحاوية (ص٤٢٠).

الله جلَّ وعلا به، وقد دخلها الرسول ﷺ ورآها وعُرِضتْ له الجنة والنار كما في صلاة الكسوف[١]، وكما أنه لمَّا عُرج به يقول: «**اطلعت في الجنة فرأيت فيها كذا وكذا**»[٢]؛ والنصوص في هذا كثيرة، فالله جلَّ وعلا أخبر في آياتٍ كثيرة أنه أعدَّها للمتقين، والإعداد هو تهيئة الشيء[٣]، وكذلك النار.

فنسأل الله النعيمَ والنظر لربنا من غير ما شَينٍ غَبَرْ

يعني: نسأل الله جلَّ وعلا أن يَمُنَّ علينا ويُدخلنا الجنة، وأن يمنَّ علينا ويمنحنا النظر إلى وجهه الكريم، فإن أهل الجنة ينظرون إليه في موقف القيامة، وكذلك إذا دخلوها ينظرون إليه ولا يُحيطون به ـ تعالى وتقدس ـ فإنه لا يُحاط به.

فإنه يُنظر بالأبصار كما أتى في النص والأخبار

يعني: ينظر إليه بالأبصار، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] في آيات عدة، وقال جل علا: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]؛ قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما حجب أهل الشقاء دلَّ على أن أهل السعادة ينظرون إليه»[٤].

لأنه سبحانه لم يُحْجَبِ إلا عن الكافرِ والمكذِّبِ

يعني أن الذي كذب الرسل والذي كفر بدين الله جلَّ وعلا من عباده، هؤلاء لا يكلِّمُهم الله ولا يزكِّيهم ولا ينظر إليهم ولا ينظرون إليه؛ فهم معذَّبون.

---

(١) أخرجه أحمد (٦٤٨٣)، والنسائي (١٤٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٧).
(٣) مقاييس اللغة لابن فارس (٤/ ٢٩).
(٤) ...

الباب الخامس

في ذكر النبوة وذكر محمد ﷺ وبعض الأنبياء وفضل أصحابه وأمته على سائر الأنبياء والمرسلين

النُّبُوَّة ـ على القول الصحيح ـ أُخِذتْ من الإنباء.

وقيل: إنها من النَّبْوَةِ، يعني من الرِّفعة؛ لأن الله رَفَعَهم على غيرهم من الخلق.

ولكن الصحيح أنها من الإنباء، فمَن جاءه النبأ من الله جلَّ وعلا؛ فهو نبي.

والفرق بين النبي والرسول: أن النبي يوحَى إليه في أُمَّة مسلمة لأمورٍ خاصة، وقد تكون عامة، أمَّا الرسول فهو يكلَّف بالدعوة إلى الله جلَّ وعلا، ويرسل إلى أمة كافرة وليس إلى أمة مسلمة[1]، فالنبي ـ كما وصفه هنا ـ يكون ذكرًا حرًّا قويًّا، كذلك يكون ذا خُلُق حسن، وخَلق حسن، ويكون في رِفعة من قومه، قد عُرف بالنسب الرفيع وكذلك بالفضل، وبغير ذلك.

ولهذا أخبر جلَّ وعلا أنه يمنُّ على الرسل بأن يجعل الرسالة فيهم، وهذه المِنَّةُ هي أكبر مِنَّةٍ لله جلَّ وعلا على عباده.

فبعثُ الرسل ضروري، وأعظم من الأكل والشرب؛ إذ على مجيئهم تترتب السعادة، لأن الخَلقَ لا يستطيعون أن يعرفوا أمر الله وتكليفه، وكذلك الطريق إلى السعادة والنقاء من الشقاء.

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق (ص٣٣٢)

ومن عظيم مِنَّةِ السلام ولطفه بسائر الأنام

«**السّلام**» اسمٌ من أسماء الله، فهو السلامُ لأنه سالم من النقائص تعالى وتقدس.

قوله: «**ولطفه بسائر الأنام**» الأنام هم الخلق، ويُقصد بهم الجِنُّ والإنس، فالله جلَّ وعلا لَطَفَ بهم، وأرسل إليهم الرسل.

أمَّا الجنُّ فليس منهم رسل، ولكن منهم نُذُر يأتون إلى الرسل ويذهبون ويُنذرون قومَهم، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا﴾ إلى آخر الآيات [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠].

فقالوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ولم يقولوا: من بعد عيسى؛ لأن عيسى عليه السلام لم يأتِ بشريعة جديدة، وإنما جاء مُجَدِّدًا للتوراة ومكمِّلًا لها، كما قال الله جلَّ وعلا عنه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

أن أرشد الخلق إلى الوصول مُبيِّناً للحق بالرسول

يعني: أن هذا من مِنَّةِ الله جلَّ وعلا، حيث أرسل الرسل لتُرشد الخلق إلى الحق، وتُبيِّنَ لهم الطريق الذي فيه السلامة في الدنيا والآخرة، والرسول يُبيِّن للناس ما ينفعُهم في الدنيا والآخرة، ويبيِّن لهم ما يضرُّهم ويحذِّرهم منه، فهو يأتي بالخير كله، ويَنهى عن الشر ويحذِّر منه.

والرُّسُل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لهم المقام الرفيع والفضل العظيم على الخلق، ويجب أن يُطاعوا ويتبعوا ويُعبد الله جلَّ وعلا بما جاؤوا به.

وشرط من أكرم بالنبوةِ حريةٌ ذكورةٌ كقوةِ

يعني: أنه يجب أن يكون حرًّا؛ لأن الرقيق فيه نقص، وكذلك يشترط فيه الذكورة، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف:١٠٩] قال: ﴿رِجَالٗا﴾، ولم يكن من النساء رسول، وما ذهب إليه الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ فهو مما تفرد به، ولم يقل به غيره، قال: «يجوز أن تُبعث المرأة رسولًا»، وزعم أن مريم كانت رسولًا[١]؛ وهذا خلاف ما قال الله جلَّ وعلا؛ فإنه وصفها بأنها صِدِّيقة قال تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ [المائدة: ٧٥] ولم يقل سبحانه: نبيَّة.

فالنساء ليس منهن رسول؛ لأن الرسول لا يكون إلَّا ذكرًا حرًّا، قويًّا يعني بأمر الله جلَّ وعلا، ينفذ أمرَه، ويقوم بالدعوة التي يُكلَّف بها؛ لأنه يُكلَّفُ أمرًا عظيمًا، فلا بد أن يكون كذلك.

ولا تُنال رتبة النبوةِ بالكسب والتهذيب والفتوةِ

وهذا خلاف ما عليه الفلاسفة، مثل ابن سينا ونحوه، فإنه يقول: «إن النبوة مكتسبة»[٢]، يقول: يمكن للإنسان أن يكون نبيًّا إذا اجتمعت فيه ثلاث صفات؛ قوة الحدس، وقوة التخمين، وقوة كذا، ومنهم ابن سبعين لمَّا قيل له: إن الله جلَّ وعلا ختم النبوة بمحمد، فإنه ﷺ يقول: «أنا خاتم الأنبياء»[٣]، قال: لقد تحجَّر واسعًا ابن آمنة[٤]!! وهذا كفر بالله جلَّ وعلا، وعنده ـ عياذًا بالله ـ كفريات غير هذه.

فلا تُنال رُتبة النبوة بالكسب، ولا بتهذيب الأخلاق، ولا بغير ذلك من الأمور؛ لا برياضات أهل التصوف، ولا الجوع والاجتهاد في

---

(١) الفصل في الملل (٥/ ١٢).
(٢) انظر: الجواب الصحيح (٥/ ٣٤٤).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٣٩٠).
(٤) انظر: تاريخ الإسلام (١٥/ ١٦٨).

العبادة؛ وإنما النبوة فضلٌ من الله جلَّ وعلا، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

أمَّا الفتوة فهي من تهذيب الأخلاق، وحُسن المعاشرة، وكذلك اختيار الأعمال الطيبة، والقيام بالفضل الذي يُبذل للناس ونفعِهم وغير ذلك، وكل هذه الأخلاق لا يُنال بها شيء، وإنَّما يُنال بها الجزاء من الله جلَّ وعلا إذا كانت على وفق الشرع.

لكنها فضلٌ من المولى الأَجَلْ لمن يشا من خلقه إلى الأجلْ

يعني: أن النبوة فضلٌ يتفضَّل الله جلَّ وعلا به على من يشاء من عباده، وهو أعلم بمن يصلح لها ومن يتحمَّلُها.

ولم تزل فيما مضى الأنباء من فضله تاتي لمن يشاء

يعني أن الله جلَّ وعلا لم يزل يرسل الرسل إلى البشر؛ قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، كلُّ رسولٍ يأمر بهذا، يقول: اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت.

والطاغوت: كل ما عُبِدَ من دون الله جلَّ وعلا، أو صَدَّ عن دينه.

حتى أتى بالخاتم الذي ختم به وأعلانا على كل الأمم

يعني: هذا فضلٌ من الله جلَّ وعلا أن جعلَنَا أُمَّةً مفضَّلة مقدَّمة على جميع الأمم، وقد جاءت النصوص بهذا عن النبي ﷺ؛ قال: «**نحن الآخِرون الأوَّلون، بَيْدَ أنَّهم أوتوا الكتابَ من قبلنا**»[1]، وأخبرَ أن أمَّتَه هي أول مَن يسبق إلى الموقف، وهي أول من يدخل الجنة، وقال للصحابة رضي الله عنهم: «**أترضونَ أن تكونوا ربع أهل الجنة؟**». قلنا: نعم، قال: «**أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟**». قلنا: نعم، قال: «**والذي نفس**

(١) أخرجه مسلم (٨٥٥).

محمد بيده، أرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة»[1]؛ يعني أن نصف أهل الجنة يكون من هذه الأمة.

وهم شهداء على الأمم السابقة، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ووسطًا يعني: عدولًا خيارًا، فهذا فضلُ الله جلَّ وعلا، ولكن الذي يكفُر منهم يكون أشقى خلقِ الله؛ لأن الذي يؤمن بخير الرُّسُل يقابله الذي يكفر بخير الرسل.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).

فصل
في بعض خصائص النبي ﷺ

وخصَّه بذاك كالمَقام وبعثِهِ لسائر الأنام

ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ شيئاً من خصائص النبي ﷺ، وخصائصه كثيرة، وقد وُضعت كتبٌ خاصة بذكر خصائصه من بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكر هو ﷺ شيئًا من ذلك كثيرًا.

قال: «**وخصَّه بذاك**» يعني كونه فضَّلَه على الرُّسل وجعله خاتمَ الرسل، هذا من خصائصه ﷺ، كما سبق، وخصَّه كذلك بالمقام المحمود الذي وعده إيَّاه، وهو الشفاعة الكبرى، وكذلك خصه ببعثه لكل أهل الأرض من الجن والإنس؛ هذا من خصائصه أيضًا.

ومعجزُ القرآنِ والمعراج حقّاً بلا مَيْنٍ ولا اعوجاج

كذلك خصَّه بالمعجز العظيم «القرآن»، فهو معجز بلفظه ومعناه وتركيبه من كل المعاني.

وخصَّه كذلك بـ«**المعراج**»، وأما الإسراء فقد وقع لبعض الرسل، ومن ثمَّ فليس من خصائصه، ولذلك اقتصر عليه الناظم.

والمعراج: هو الصعود إلى السماء السابعة، ثم إلى سدرة المنتهى، وهذا من خصائص نبينا ﷺ.

قوله: «**حقًّا بلا مين ولا اعوجاج**» أي أن هذا الأمر حقٌّ ثابتٌ بلا كذب ولا تحريف.

هذه بعض الخصائص، وإلَّا فهي كثيرة، منها قوله ﷺ: «**فُضلت على الأنبياء بخمس: أُرسلتُ إلى الناس كافَّةً، ونُصِرتُ بالرُّعب مسيرةَ شهرٍ...**»[١]؛ يعني أن عدوَّه يخاف منه وإن كان بينه وبينه مسيرة شهر، وهذا ليس خاصًّا به فقط، بل كذلك لأُمَّته، بشرط أن يكونوا مُتَّبِعين لشرعه، مطيعين له، أمَّا إذا تركوا شرعه واجترؤوا على معاصي الله جلَّ وعلا فهم مثل غيرهم، وقد يكونون أسوأَ حالًا منهم.

وكذلك قوله ﷺ: «**جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وكان مَن قبلنا يصلون في كنائسهم وبِيَعِهم**»[٢]، ولا يتطهرون إلَّا بالماء، ففُضِّلَنا بهذا فضلًا من الله جلَّ وعلا.

وقوله ﷺ: «**أُحلَّت لي المغانم**»[٣]، ولم تحلَّ لنبي قبله ﷺ، فكانت الأنبياء إذا غنموا أموال الكفار، إذا قاتلوهم وغنموا أموالهم يجمعونها ثم تنزل نار تحرقها إلا أن يكون فيه غُلول، فعدم نزول النار دليل على أن هناك غلولًا.

ففي الصحيح، أن نبيًّا أراد أن يقاتل حين صلاة العصر أو قريبًا من ذلك فقال للشمس: أنتِ مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليَّ شيئًا، فحُبست عليه حتى فتح الله عليه، فجمعوا ما غنموا، فأقبلت النار لتأكله، فَأَبَتْ أن تَطْعَمَه، فقال: فيكم غلول، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه، فَلَصِقَتْ يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فبايعته، قال: فَلَصِقَتْ بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتم، قال: فأخرَجوا له مثلَ رأسِ بقرةٍ من ذهب، قال: فوضعوه في المال وهو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (...)، ومسلم (...).
(٢) أخرجه أحمد (٧٠٦٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥).
(٤) أخرجه مسلم (١٧٤٧).

فقوله ﷺ: «**أُحلت لي المغانم**» كان ممَّا اختصه الله عزَّ وجل به دون غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

فكم حباه ربه وفَضَّلَه وخصَّه سبحانه وخوَّله

فله ﷺ فضائلُ كثيرة، فقد اتخذه الله خليلًا، وكلَّمه بلا واسطة، كما في المعراج وغير ذلك.

وأعطاه الشفاعة، فله شفاعات عِدَّة تخصُّه، مثل الشفاعة الكبرى، والشفاعة في دخول أهل الجنة، فهذا فضل الله جلَّ وعلا، وهو أعلم حيث يضع فضله.

فصل
في التنبيه على بعض معجزاته ﷺ

ومعجزات خاتَم الانبياء كثيرةٌ تَجِلُّ عن إحصائي
منها كلام الله مُعجزُ الورى كذا انشقاق البدر من غير امترا

يعني هذا شيء من معجزاته ﷺ، والمعجزة: هي الآيات التي يُتحدى الناس بها، فيعجزون أن يأتوا بشيء مثلها، وهي خرق للعادة.

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: «المعجزة الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدِّي، الدالُّ على صِدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وسُمي معجزةً؛ لعجز البشر عن الإتيان بمثله»[١].

قوله: «**منها كلام الله مُعجزُ الورى**» يعني أن من معجزاته ﷺ: القرآن كلامُ الله جلَّ وعلا.

ومنها: انشقاق القمر، فعن أنس رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يُريهم آية، فأراهم انشقاق القمر[٢].

ومنها: نبع الماء من أصابعه ﷺ؛ فقد روي أن النبي ﷺ خرج في بعض مخارجه، ومعه ناس من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاة، فلم يجدوا ماء يتوضؤون، فانطلق رجل من القوم، فجاء بقدح من ماء يسير، فأخذه النبي ﷺ فتوضأ، ثم مَدَّ أصابعه الأربعَ على القَدَح

(١) انظر: الفتح المبين بشرح الأربعين (ص٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤٨٦٧)، ومسلم (٢٨٠٢).

ثم قال: «قوموا فتوضؤوا» فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء، وكانوا سبعين أو نحوه[١].

ومنها: تكثير الطعام القليل حتى يكفي الجماعات الكثيرة[٢]، وكذلك قصة الشجرة التي دعاها النبي ﷺ يستشهدها؛ فعن ابن عمر، رضي الله عنهما قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأقبل أعرابي، فلمَّا دَنَا منه قال له رسول الله ﷺ: «**أين تريد؟**». قال: إلى أهلي، قال: «**هل لك في خير؟**» قال: وما هو؟ قال: «**تشهد أن لا إله إلَّا الله وحدَه لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله**». فقال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: «**هذه السَّلَمَةُ**». فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي فأقبلت تَخُدُّ الأرضَ خَدًّا حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا، فشهدت ثلاثًا أنه كما قال، ثم رجعت إلى مَنْبِتِها ورجع الأعرابي إلى قومه، وقال: إنِ اتَّبَعُوني أتيتُك بهم، وإلَّا رجعت، فكنت معك[٣].

ومنها: إجابة دعوته؛ فعن أنس بن مالك: أن رجلًا دخل المسجد يوم جمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسولَ الله ﷺ قائمًا، ثم قال: يا رسول الله، هَلكتِ الأموالُ وانقطعتِ السُّبل، فادْعُ اللهَ يُغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: «**اللهم أَغِثْنَا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا**». قال أنس: فطَلَعتْ من ورائه سحابةٌ مثلُ التُّرْس، فلمَّا توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت. ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة، ورسول الله ﷺ قائمٌ يخطب، فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادْعُ الله يُمسكها عنَّا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: «**اللهمَّ حَوَالَيْنَا ولا علينا**».

---

(١) أخرج البخاري (٣٥٧٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٣٨١).
(٣) أخرجه الدارمي (١٦).

قال: فأقلعت، وخرجنا نمشي في الشمس[١].

وغير ذلك من الأمور الكثيرة، وقد خصَّها العلماء بكتب مستقلة، منهم من يسميها دلائل النبوة، وهي كثيرة[٢]، ومنهم من يسميها الخصائص النبوية[٣]، ولكن ليست هي خصائص؛ لأن الدلائل بين الرسل، وإن خُصَّ بشيء منها صلوات الله وسلامه عليه.

(١) أخرجه البخاري (١٠١٣، ١٠١٤).

(٢) منها: دلائل النبوة للبيهقي، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ودلائل النبوة لابن قتيبة. انظر: كشف الظنون (١/ ٧٦٠).

(٣) منها: الخصائص النبوية للسيوطي. انظر: كشف الظنون (١/ ٧٠٥).

فصل
في ذكر فضيلة نبينا وأولي العزم وغيرهم من النبيين والمرسلين

وأفضل العالم من غير امترا ... نبينا المبعوث في أم القرى
وبعده الأفضل أهل العزم ... فالرسل ثم الأنبيا بالجزم

يعني: أن ترتيب الأنبياء من حيث الفضل: نبينا ﷺ، ثم أولو العزم، ثم غيرهم من النبيين والمرسَلين لله جلَّ وعلا، يخصُّ بفضله من يشاء من عباده، وهو أعلم بخلقه وأعلم بغيرهم تعالى وتقدس.

يقول: **وأفضل العالم»** العلوي والسفلي، من مَلَك وبَشَرٍ، هو محمد ﷺ، هو أفضل الخلق على الإطلاق، هذا ما دلت عليه الدلائل، وكذلك هذا الفضل من الله جلَّ وعلا قد خصَّه به تكرُّمًا وجودًا، وإنَّما كان أفضلَ الخلق؛ لأن الله أيَّدَه بالمعجزات والدلائل وأشهر الكرامات، وأُمَّتُه أزكى الأمم، وشريعته أتمُّ الشرائع، وصفاته أكملُ الصفات صلوات الله وسلامه عليه، وهو ذو الخلق الحسن الجميل، والواسع الذي يسع الناس، وله من الفضائل الشيء الذي لا يعرفه إلَّا من قرأ سيرته.

قوله: «**أم القرى**» هي مكة كما هو معروف، هو بُعث فيها، لكن دينه في الأرض كلها، ويقول ﷺ: «**والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار**»[1]، فعلق الأمر بالسماع.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٤٧).

قوله: «أهل العزم» من الرسل هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام؛ هؤلاء الخمسة هم أولو العزم.

وقد ذُكروا في آيتين من كتاب الله، ذكروا في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وذكروا في سورة الشورى، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال جل وعلا له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، يقول العلماء: آدم ليس من أولي العزم؛ لأن الله جل وعلا قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥][1].

(١) انظر: أضواء البيان (٤/١٠٦).

فصل
فيما يجب للأنبياء عليهم السلام
وما يجوز عليهم، وما يستحيل في حقهم

وأن كل واحد منهم سَلِم ... من كل ما نَقْصٍ ومن كُفْرِ عصم
كذاك من إفكٍ ومن خيانه ... لوصفهم بالصدق والأمانه
وجائز في حق كل الرُسُل ... النومُ والنكاح مثلُ الأكل

هذا فيما يجب على الأنبياء عليهم السلام، وما يجوز عليهم، وما يستحيل في حقِّهم.

قوله: «**وأن كل واحد منهم سَلِم..**» هذا ـ بالاتفاق ـ بعد النبوة، أمَّا قبل النبوة ـ أي قبل أن يُرسَلوا ـ ففيه خلاف بين العلماء، هل كانوا على دين قومهم أم لا؟ وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]، كثيرٌ من المفسرين يقول: ﴿ضَآلًّا﴾ يعني على غير هذا الأمر الذي أنزله الله عليك، وإلَّا فهو ﷺ لم يكن على دين قومه، بل كان يكره الشرك ويكره ما كان من أخلاق الجاهلية، وعصمه الله من ذلك.

واستدل بعضهم بقوله في قصة شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ [الأعراف: ٨٩] إلى آخر الآيات.

قال الماوردي: «فإن قيل: فالعود إلى الشيء الرجوع إليه بعد الخروج منه، فهل كان شعيبٌ على ملة قومه من الكفر حتى يقول: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾؟ في الجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن هذه حكاية عمَّن اتبع شعيبًا من قومه الذين كانوا قبل اتباعه على ملة الكفر.

الثاني: أنه قال ذلك على التوهُّم أنه لو كان عليها لم يعد إليها.

الثالث: أنه يطلق ذِكرُ العَود على المبتدِئ بالفعل وإن لم يسبق منه فعلُ مثله، من قولهم: قد عاد عليَّ من فلان مكروهٌ، وإن لم يسبقه بمثله»[(١)].

وعلى كل حال؛ نُقل الاتفاق أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله جلَّ وعلا، وهذا لا خلافَ فيه، أمَّا ما عدا ذلك في كونهم يقعون في مخالفات فهذا فيه خلاف بين العلماء، ولكنهم متفقون على أنهم لا يُقَرُّون على ذلك[(٢)]، والدلائل على هذا كثيرة من كتاب الله ومن الوقائع؛ فإن الله ينبِّههم، وقد ذكر الله جلَّ وعلا في نبيِّنا آياتٍ عدَّة؛ كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[التوبة:٤٣]، هذا نوع من العتاب.

وكذلك قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: ١ ـ ٢]، والقصة معروفة مشهورة[(٣)].

وغير ذلك من الأمور التي ينبهه الله عليها فيرجع بعد ذلك إلى ما هو خير وأحسن.

قوله: «**كذاك من إفك ومن خيانة..**» يعني: أنهم معصومون من الكذب ومن الخيانة، وكذلك موصفون بالصدق والأمانة، وهذا لا شك فيه، فهم معصومون من هذا ومن غيره بعدما ينبئهم الله جلَّ وعلا ويجعلهم أنبياء.

قوله: «**النوم والنكاح مثل الأكل**» يعني أنهم من بني آدم، قال الله جلَّ

---

(١) انظر: النكت والعيون (٢/ ٢٣٩).
(٢) انظر: الشفا (٢/ ٣٢٨)، شرح صحيح مسلم للنووي (٣/ ٥٤)، مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٩).
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢١٧).

وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠] يعني خُص بأنه يوحى إليه وإلَّا فهو مثلنا؛ ولد بين ذكر وأنثى، وهو يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، ويألم من الألم وينعم بالنعيم، وغير ذلك، فهو بشر.

وأما الذين يقترحون على الله أن يكون الرسول مَلَكًا ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] فهؤلاء جهلة؛ لأن الملَك لا يخاطِبُ إلَّا مَن هو من جنسه، والبشر لا يستطيعون مخاطبة الملك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] يعني لو قُدِّر أن نرسل لهم ملكًا، لجاءهم في صورة رجل منهم؛ حتى يتمكنوا من الأخذ عنه والمفاهمة معه، أمَّا الملك فلا يستطيعون.

وقال جل وعلا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٥]، لكن الذي في الأرض بشر، فصار من رحمة الله جلَّ وعلا أن يُرسل إليهم من جنسهم حتى يستطيعوا الأخذ عنه والحديث معه، وهذا من رحمة الله جلَّ وعلا، ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

فصل
في ذكر الصحابة الكرام رضي الله عنهم

وليس في الأمة بالتحقيق في الفضل والمعروف كالصدِّيق

ثم انتقل رحمه الله للحديث عن الصحابة رضي الله عنهم وفضلهم، وهذه عادة المؤلفين في العقائد؛ أنهم يذكرون الصحابة وفضلهم ومقامهم، لما كثر من النواصب الذين هم الخوراج، والرافضة، من سب الصحابة رضوان الله عليهم والطعن فيهم، فصار من عادة العلماء أن يذكروا فضل الصحابة ومقامهم، فالصحابة هم الوساطة بيننا وبين نبيِّنا، وهم الذين نقلوا لنا الدين عن النبي ﷺ فمَن قدح فيهم فهو يقدح في شرع الله جلَّ وعلا، وهذا من فعل الزنادقة الذين يفكرون في إبطال الدين فصاروا يقدحون في الصحابة وأنهم فيهم كذا وفيهم كذا حتى يبطل الدين، ولهذا يقول أبو زرعة رحمه الله: «إذا رأيت الرجل يتكلم في الصحابة فاعلم أنه زنديق»(١).

فهم يريدون أن يقدحوا في شهودنا، وهم المقدوح فيهم!

قوله: «**في الفضل والمعروف كالصديق**» يعني أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل الأمة، وهو أفضل الناس بعد الأنبياء، كما أن الصحابة هم أفضل الخلق بعد الأنبياء.

قال النووي رحمه الله: «اتفق أهل السنة على أن أفضلهم أبو بكر ثم

(١) انظر: الكفاية للخطيب البغدادي (ص٤٩).

عمر، قال جمهورهم: ثم عثمان، ثم علي»[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأفضل الصحابة، بل أفضل الخلق بعد الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: أبو بكر»[٢].

قوله: «**في الفضل والمعروف كالصديق**»: يعني أنه سُمي صِدِّيقًا؛ لتصديقه النبي ﷺ[٣]، فإنه صاحب رسول الله ﷺ، ولم يُعرف أنه أحجم عن شيء أمر به، أو أنه تردَّد في شيء، أو جاءه هوًى أو شك في ذلك؛ ولهذا لما حدث يوم الحديبية وحصل ما حصل من الكفار، وصاروا يُملون الشروط على رسول الله ﷺ بواسطة سهيل بن عمرو الذي كان هو المفاوض مع رسول الله ﷺ، داخَلَ كثيرًا من الصحابة شيء من الارتياب، حتى عمر صار يحاج النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «**بلى**»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «**بلى**»، قال: ففِيمَ نُعطِي الدنيَّةَ في ديننا، ونرجع، ولـمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟! فقال: «**يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا**»، قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيظًا، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟! فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدًا[٤]، وفي رواية: «**الزم غَرْزَه**»[٥]، فأجابه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثلما أجاب الرسولُ ﷺ.

وكذلك لـمَّا رجع من حَجة الوداع وكان في المكان الذي يتخذه

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٥/١٤٨).
(٢) الباعث الحثيث (ص١٨٣).
(٣) انظر: المواهب اللدنية (١/٥٣١).
(٤) أخرجه البخاري (٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٨٥).
(٥) أخرجه أحمد (١٨٩١٠).

الرافضة كذبًا وزُورًا عيدًا، غدير خم[١]، خطب الناسَ وقال: **«إن عبداً خيَّرَه الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده»**، فبكى أبو بكر وبكى، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، تعجب الصحابة، كيف هذا الشيخ يبكي والرسول يخبر عن رجل خُيِّرَ بين هذا وهذا؟! قال فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّر.

قال أبو سعيد ـ راوي الحديث ـ: وكان أبو بكر أعلَمَنا به[٢].

ولمَّا حصلت الفتنة والرِّدة بعد وفاة الرسول ﷺ، ارتبك الصحابة وصار عندهم شيءٌ من التردد في الأمر، حتى قال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فقال له: ألم يقل: إلَّا بحقها؟ والله لو منعوني عَناقًا[٣] كانوا يُؤدُّونها إلى رسول الله لَقاتلتهم عليها[٤]، حتى لامه وقال: أجبَّارٌ في الجاهلية وخوار في الإسلام يا عمر؟[٥] فعند ذلك اجتمع رأيُهم على قتالهم.

كذلك لمَّا قيل له: لا تُنْفِذْ جيش أسامة رضي الله عنه؛ لأن الرسول ﷺ أمر أسامة بن زيد وبعث معه كثيرًا من الصحابة إلى أخذ الثأر في قتل أهل مؤتة ومنهم أبوه زيد، فقد كان هو الأمير، فقُتل، ثم قُتل الأمراء الذين عيَّنَهم؛ جعفر، وعبد الله بن رواحة.

فخرجوا إلى الجرف فخيموا به، وكان فيهم عمر بن الخطاب ـ ويقال: وأبو بكر الصديق.

---

(١) خُمّ: وادٍ بين مكة والمدينة عند الجحفة به غدير، عنده خطب رسول الله ﷺ. معجم البلدان (٢/ ٣٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٣) العناق: الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم له سنة. النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣١١).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٠٠)، وأخرجه مسلم (٢٠) بلفظ «عقالاً».

(٥) أخرجه المحب الطبري في الرياض النضرة (١/ ١٠٥).

فاستثناه رسول الله ﷺ منهم: للصلاة، فلمَّا ثقل رسول الله ﷺ أقاموا هنالك، فلمَّا مات عَظُمَ الخَطبُ واشتدَّ الحالُ ونَجَمَ النفاق بالمدينة، وارتدَّ مَن ارتدَّ من أحياء العرب حول المدينة، وامتنع آخرون من أداء الزكاة إلى الصِّدِّيق، ولم تبقَ الجمعة تُقام في بلد سوى مكة والمدينة!!

لما وقعت هذه الأمور أشار كثير من الناس على الصِّدِّيق أن لا يُنفذ جيشَ أسامة؛ لاحتياجه إليه فيما هو أهم الآن مما جُهِّزَ بسببه في حال السلامة، وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب، فامتنع الصديق من ذلك، وأبى أشد الإباء إلَّا أن يُنفذ جيش أسامة، وقال: والله لا أَحُلُّ راية عَقَدَها رسول الله ﷺ[١]. فأرسله وكان في هذا خير كثير.

المقصود: أنه تبيَّن فضلُه بأشياء كثيرة على الصحابة رضوان الله عليهم.

وقد رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال في آخر حياته: «ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلَّا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر»[٢] ويقول: «**أمنُّ الناس عليَّ بنفسه وماله أبو بكر**»[٣]، ويقول: «**لو كنت متخذًا من الناس خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام**»[٤]، والخُلَّةُ لا تقبل المزاحمة، ولهذا اتفق أهل السنة على أنه أفضل الصحابة، وأنه أجدر بالخلافة وأولى من غيره كما وقع[٥].

وقد همَّ الرسول أن يكتب له كتابًا؛ لئلا يتقوَّل متقوِّلٌ ويتمنى متمنٍّ ـ

(١) انظر: البداية والنهاية (٩/ ٤٢١).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٦١).
(٣) الاعتقاد للبيهقي (ص٣٤١).
(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٥) انظر: الإصابة (١/ ٢٣).

كما في الصحيحين ـ ثم بدا له ألَّا يكتب، وقال: يأبى الله والمؤمنون[١] إلَّا أبا بكر، فأمره بالصلاة وقد راجعته عائشة كثيرًا؛ لئلا يكون هو الخليفة، قالت: «لقد راجعت رسول الله ﷺ في ذلك، وما حملني على كثرة مراجعته إلَّا أنه لم يقع في قلبي: أن يحب الناس بعده رجلًا قام مقامَه أبدًا، ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلَّا تشاءم الناس به، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر[٢].

فكان هذا رأيها، فلما راجعته وقال: «**مُرُوا أبا بكر فلْيُصَلِّ بالناس**»، فقيل له: إن أبا بكر رجل أَسِيفٌ، إذا قام في مقامك لم يستطع أن يسمع الناس، وأعاد فأعادوا له، فأعاد الثالثة، فقال: «**إنكنَّ صواحبُ يوسفَ، مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس**»[٣].

كل هذه الفضائل وغيرها كثير، قال كثير من أهل السنة: هي تكاد تكون نصوصًا في كونه هو الخليفة، وبعضهم يقول: هي إشارات، وليس فيها نص صريح؛ لأنه كما قال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[٤]، وترك هذا؛ لأن هذا يكون أبلغ حين يختارونه.

وبعده الفاروق من غير افترا وبعده عثمان فاتركِ المرا

«**وبعده**» يعني بعد الصديق في الفضل «**الفاروق**» عمر رضي الله عنه، وسُمي الفاروقَ؛ لأنه فرق بين الحق والباطل[٥]، ولمَّا أسلم صار المسلمون في عِزَّة وقوة كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما زلنا أَعِزَّةً منذ أسلم عمر»[٦]؛

(١) أخرجه البخاري (٧٢١٧)، ومسلم (٢٣٨٧).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٥)، ومسلم (٤١٨).
(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨).
(٤) تقدم تخريجه (ص...).
(٥) مناقب عمر لابن الجوزي (ص٢٣).
(٦) أخرجه البخاري (٣٦٨٤، ٣٨٦٣).

لأن عنده من القوة والجرأة والولاء ما هو معروف، فهو الذي فُتحت في خلافته الفتوحات العظيمة، ولهذا اغتاله الفُرس، فهو أفضل الأمة بعد أبي بكر رضي الله عنه.

«**وبعده عثمان**» ذو النورين، وسُمي ذا النورين؛ لأنه تزوج بنتين من بنات رسول الله ﷺ[١].

و«**المرا**» الشك والجدال، الذي كان عند الشيعة الذين شايعوا عليًّا وهم من أهل السنة، فكانوا يقدمون عليًّا على عثمان[٢].

«**فاترك المرا**»: أي الذي يقوله أولئك الذين يُقَدِّمون عليًّا رضي الله عنه على عثمان.

وبعدُ فالفضل حقيقاً فاسمعِ نظامِ هذا للبَطين الأنْزَع
مُجَدِّلِ الأبطال ماضي العزمِ مُفرج الأوجال وافي الحزم

«**البطين**» عظيم البطن، و«**الأنزع**» الذي ليس في مقدم رأسه شعر، وهو علي رضي الله عنه. وقيل: معناه: الأنزع من الشرك، المملوء البطن من العلم والإيمان[٣].

«**مُجَدِّل**» من جدَّلَه تجْديلاً، فانْجَدلَ وتَجَدَّل: رماه وصَرَعَه على الجَدالَةِ أي الأرض، ومنه قوله رضي الله تعالى عنه يوم الجمل، لما وقف على طلحة رضي الله تعالى عنه، وهو صريع: أَعْزِزْ عليَّ أبا محمد أن أراك مُجَدَّلًا تحت نجوم السماء في بطون الأودية[٤].

والمعنى: أنه ذو الشجاعة والإقدام، فقد كان رضي الله عنه معروفًا بشجاعته وإقدامه رضي الله عنه.

---

(١) انظر: الشريعة للآجري (٤/ ١٧٤٧)، السنن الكبرى للبيهقي (١٣٤٢٧).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٤٣٥).
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٤٢).
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٢٢٩).

وافي الندى مبدي الهدى مردي العِدى مُجلي الصدى يا ويلَ مَن فيه اعتدى

«**الندى**» السخاء والكرم[١].

«**مردي**» مُهلِك[٢].

«**مُجلي**» من أجلى، أي: أوضح وكشف[٣].

«**الصدى**» العطش[٤]، وهو هنا بمعنى الكرب.

يعني أن كل هذه من أوصاف علي ﷺ؛ فهو خليق بذلك، وهو رابع الخلفاء الأربعة، وقد قتله الخوارج قاتلهم الله أنى يؤفكون[٥].

المقصود: أن الخلافة في فضلها، والفضل على ترتيبهم في الخلافة، وهذا هو مذهب أهل السنة[٦].

فحبه كحبهم حتماً وجب ومن تعدى أو قلى فقد كذب

يعني أن حُبَّ عليٍّ ﷺ يجب أن يكون كحُبِّ إخوانه السابقين عليه، وكذلك سائر الصحابة ﷺ يجب أن يُحَبُّوا لله جلَّ وعلا، ولأنهم صحابة رسول الله ﷺ.

وفضل الخلفاء على هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف رحمه الله.

وبعد فالأفضل باقي العشَره فأهل بدرٍ ثم أهل الشجره

«**وبعد**» يعني بعد الخلفاء الأربعة.

«**فالأفضل باقي العشرة**» وهم الذين بشَّرَهم الرسول ﷺ بالجنة، ومنهم الخلفاء الراشدون، قال ﷺ: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير**

---

(١) العين (٨/ ٧٨).
(٢) العين (٨/ ٦٧).
(٣) مختار الصحاح (ص٦٠).
(٤) المصباح المنير (١/ ٣٣٦).
(٥) البداية والنهاية (١١/ ١٢).
(٦) الإصابة (١/ ٢٣).

في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»[١].

هؤلاء هم العشرة الذين نصَّ عليهم رسول الله ﷺ وعيَّنَهم وخصَّهم بالذِّكر، ويَلُون الأربعة في الفضل.

وقد شهد ﷺ لغيرهم بالجنة، مثل الحسن والحسين، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عمر، وثابت بن قيس بن شماس، وغيرهم.

قال: «**فأهل بدرٍ ثم أهل الشجره**» وأهل بدر قال فيهم النبي ﷺ: «**إن الله اطلع عليهم وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[٢].

وقال ﷺ: «**ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة ما عدا صاحبَ الجمل الأحمر**»[٣]، وصاحب الجمل الأحمر هو الجَدّ بن قيس وكان منافقًا، وكان الصحابة يبايعون الرسول وهو لاصق تحت جمله لم يبايع، فلهذا أُخرج[٤].

عن جابر رضي الله عنه أن عبدًا لحاطبٍ جاء رسولَ الله ﷺ يشكو حاطبًا فقال: يا رسولَ الله لَيدخلنَّ حاطبٌ النارَ، فقال رسول الله ﷺ: «**كذبتَ! لا يدخلها؛ فإنه شَهِدَ بدرًا والحديبية**»[٥].

والذين بايعوا كان عددُهم ألفًا وأربعمائة وبضعة عشر، وبعض العلماء يقولون: ألف وخمسمائة، وعادةُ العرب أنهم يتركون الكسر ويَجْبُرونه، فإذا كان أقلَّ من خمسمائة قالوا: خمسمائة.

وكذلك الذين عيَّنهم عمر رضي الله عنه للخلافة، وهم ستة: عثمان، وعلي،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٥٠)، والترمذي (٣٧٤٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٦٣).
(٤) انظر: تحفة الأحوذي (١٠/٢٤٨).
(٥) أخرجه مسلم (٢٤٩٥).

وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، ولكن بعضهم تركها وبقي ثلاثة؛ عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: فإني أترك حقِّي من ذلك واللهُ عليَّ والإسلامُ أن أجتهد فأُوَلِّي أَوْلَاكُمَا بالحقِّ، فقالا: نعم، ثم خاطب كلَّ واحد منهما بما فيه من الفضل، وأخذ عليه العهد والميثاق إنْ ولَّاه لَيعدلنَّ، ولئن وُلِّيَ عليه لَيسمعنَّ، فقال كلٌّ منهما: نعم، ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه يستشير النَّاس فيهما، ويجتمع برؤوس النَّاس وغيرهم مَثنى وفُرادى، وجمعًا وأشتاتًا، سرًّا وجهرًا، حتى خلص إلى النِّساء المخدَّرات في حجابهنَّ، وحتى سأل الولدان في المكاتب.. في مدَّة ثلاثة أيام بلياليهنَّ.

ثم صعد منبرَ رسول الله ﷺ فقام على الدرجة التي يجلس عليها رسول الله ﷺ ووقف وقوفًا طويلًا ودعا دعاء طويلًا، ثم قال: أيُّها الناس، قد سألتكم سرًّا وجهرًا، مثنى وفرادى، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين الرجلين، ثم بايع عثمان ﷺ وبايعه الناس[١].

ولهذا يقول أيوب السختياني: «مَن قدَّم عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار»[٢]؛ يعني أن هذا بإجماعهم، ولهذا اتفق أهل السنة على تقديم عثمان[٣].

ثم يقول: «**فأهل بدر ثم أهل الشجرة**» يعني في الفضل، فيقدم بعد العشرة أهل بدر، ثم بعد أهل بدرأهل الشجرة.

ولكن كعب بن مالك ﷺ يرى أن أهل الفضل الذين يجب أن يُقَدَّموا أهل بيعة العقبة، الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة وحَمَوْه

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٧٧)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٠٩).
(٢) منهاج السنة (٨/ ٢٢٥).
(٣) انظر: المواهب اللدنية (٢/ ٧٠٢).

وقالوا: نحميك ممَّا نحمي منه أنفسَنا ونساءنا وأولادنا[١]، وهذا لا شك أنه فضل عظيم، وله من التقدم على جميع الناس في هذا، وكان ﷺ يعرض نفسه على العرب فلم يجد من يُؤويه ومن ينصره حتى يُبَلِّغَ عن ربِّه جلَّ وعلا إلَّا الأنصار، فهم الذين بايعوه وكانت بيعتُه أولًا خُفية.

وقيل: أهل أحُدِ المقدَّمه والأولُ أولى للنصوص المُحْكَمه

يعني: أن الذين قُتِلوا في أُحدٍ، وهم سبعون رجلًا، يُقدَّمُون على أهل بدر، وليس الأمر كذلك، فقد جاء أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: ما تَعُدُّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال: مِن أفضل المسلمين أو كلمةً نحوَها، قال: وكذلك مَن شَهِدَ بدرًا من الملائكة[٢].

ثم ذكر عائشة وزوجات الرسول ﷺ، فقال:

وعائشه في العلم مَعْ خديجه في السَّبق فافهم نكتَةَ النتيجه

كأنه لم يُفَاضل بين عائشة وخديجة رضي الله عنهما، وقد اختلف العلماء أيهما أفضل؟

والصحيح: أن لكل واحدة منهما خصائص ليست للأخرى؛ فخديجة نصرتِ النبي ﷺ في أول دعوته، وواسَتْه بمالها ونفسِها، وأولادُه كلُّهم منها سوى إبراهيم، وكان يُحبها كثيرًا؛ ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول: «ما غِرتُ على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غِرْتُ على خديجة، وما رأيتها»[٣] ما رأتها لأنها تُوفيتْ قبل أن يتزوجها النبي ﷺ.

أمَّا عائشة رضي الله عنها فلها من العلم والمعرفة التي اسْتَقَتْها من رسول الله ﷺ، ونشرها للعلم ما جعل الصحابة يَرجعون إليها في كثير من المسائل،

---

(١) انظر: مسند أحمد (٧٠١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨١٨)، ومسلم (٢٤٣٥).

فهذا من خصائصها رضي الله عنها.

وكذلك محبة رسول الله ﷺ لها، كما في صحيح مسلم: قيل: من أحب الناس إليك؟ قال: «**عائشة**»، قيل: ومن الرجال قال: «**أبوها**»[1].

(١) ...

فصل
في ذكر الصحابة الكرام بطريق الإجمال
وبيان مزاياهم على غيرهم

وليس في الأمة كالصحابه في الفضل والمعروف والإصابه

ثم انتقل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى ذكر الصحابة الكرام بطريق الإجمال، ومزاياهم على غيرهم، والتعريف بما يجب لهم.

قوله: «**وليس في الأمة كالصحابة**» هذا أمر متفق عليه، لكن جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**إن مِن ورائكم أيامَ الصبر، الصابر فيه مثل القابضِ على الجمر، للعامل فيهم مثلُ أجرِ خمسين رجلًا يعملون مثلَ عمله**». قالوا: يا رسول الله، أجرُ خمسين منهم؟ قال: «**أجر خمسين منكم**»[(١)]، هذا وإن كان كذلك فلا يَصِلون إلى فضل الصحابة وإن كان لهم الأجر الكثير[(٢)].

قوله: «**في الفضل والمعروف والإصابة**» يعني: إصابة الحق، فهم الذين تعلَّموا من رسول الله ﷺ الإيمان والعلم والتُّقى، ولا يوازيهم أحدٌ؛ ولهذا يقول ﷺ لمن أسلم بعد الفتح: «**والله لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه**»[(٣)]، هذا بالنسبة للسابقين من

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨).
(٢) وانظر: فتح الباري لابن حجر (٧/٧).
(٣) سبق تخريجه (ص....).

الصحابة، يقال للاحقين منهم هذا، فكيف بالذين لم يصحبوا رسول الله ﷺ؟! فهم ـ أي الصحابة ـ أفضلُ الخلق بعد الأنبياء على الإطلاق.

فإنهم قد شاهدوا المختارا وعاينوا الأسرار والأنوارا

المشاهدة لها مَزِيَّة عظيمة، ولكن القتال بين يديه، ومناصرته وبَذْل أموالهم ونفوسهم لنصرة دين الله جلَّ وعلا أهم من المشاهدة.

وجاهدوا في الله حتى بانا دينُ الهدى وقد سما الأديانا

يعني: أن من فضائلهم أيضًا أنهم جاهدوا في سبيل الله، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ إلى آخر الآية [الفتح:٢٩].

وجاء عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل من غاظه شأن الصحابة فليس من الإسلام في شيء»[١] كما في هذه الآية: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وأول من يدخل فيها هُمُ الصحابة رضوان الله عليهم، وحبُّ الصحابة دِينٌ، ويُرجى فيه الفضل العظيم، وبُغضهم كفرٌ بالله جلَّ وعلا.

وقد أتى في محكم التنزيلِ من فضلهم ما يشفِ من غليل

يعني: أنه جاءت في كتاب الله جلَّ وعلا أدلةٌ كثيرة تدل على فضلهم؛ فالله جلَّ وعلا ذكر أنه رضي عنهم ورَضُوا عنه، وذكر لهم مزايا كثيرة، فكتابُ الله جلَّ وعلا فيه مِن ذِكرِهم ما يَشفي، وقد أَلَّف بعض العلماء كُتَيِّبًا طيبًا ينبغي أن يُطَّلَع عليه، وهو إتحاف ذوي النجابة بما في الكتاب والسنة من فضل الصحابة[٢].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٢).

(٢) مؤلفه: محمد العزبي، ونشرته المكتبة المكية.

ففضائلُهم رضوان الله عليهم كثيرة والكتب فيها كثيرة، ولأنه في هذه الأيام فشا الكلام فيهم والجرأة عليهم ينبغي أن تُقرأ هذه الكتب؛ لأن فيها الدلائل الواضحة.

وفي الأحاديث وفي الآثار وفي كلام القوم والأشعار

يعني: فيما قاله الله وقاله الرسول ﷺ وفي الأشعار وغيرها من فضلهم والتنويه بذكرهم ما قد أَغنى.

ما قد ربا مِنْ أن يحيطَ نظمي عن بعضه فاقنعْ وخُذ عن علم

يعني أن ما ذكر من فضائل الصحابة رضوان الله عليهم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي أشعار العرب المَرضيين، قد زاد عن أن يحيط به نظمه هذا، فاقنع بما جاء في هذه الأرجوزة وخذه عن علم يقيني.

واحذرْ مِنَ الخوض الذي قد يُزري بفضلهم مما جرى لو تدري

أي احذر من الخوض الذي يؤدي إلى الحقد على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، مما جرى لهم من القتال من نحو ما جرى بين علي ومعاوية وغيرهما رضي الله عنهما.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «كان من مذاهب أهل السنة، الإمساكُ عمَّا شَجَرَ بين الصحابة، فإنه قد ثبتت فضائلُهم، ووجبت موالاتُهم ومحبَّتُهم.

وما وقع منه ما يكون لهم فيه عذر يخفى على الإنسان، ومنه ما تاب صاحبه منه، ومنه ما يكون مغفورًا.

فالخوضُ فيما شجر يُوقِعُ في نفوس كثيرٍ من الناس بُغضًا وذمًّا، ويكون هو في ذلك مخطئًا، بل عاصيًا، فيضرُّ نفسَه، ومَن خاض معه في ذلك، كما جرى لأكثر مَن تكلَّمَ في ذلك، فإنهم تكلَّموا بكلامٍ لا يحبُّه الله ولا رسوله: إمَّا مِن ذمِّ مَن لا يستحقُّ الذمَّ، وإمَّا من مدح أمور

لا تستحق المدح؛ ولهذا كان الإمساك طريقةَ أفاضل السلف»[١].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «واتفق أهل السنة على وجوب مَنْعِ الطعن على أحدٍ من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عَرَفَ المحقَّ منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلَّا عن اجتهاد، وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا، وأن المصيب يؤجر أجرين»[٢].

فالله جل وعلا أثنى عليهم ومدحهم ورضي عنهم وهو يعلم أنهم سيتقاتلون، فهو علَّام الغيوب، ولا يُثني على أحد وهو يعلم أنه سيتردى.

فإنه عن اجتهاد قد صدرْ فاسلم أذلَّ اللهُ من لهم هجر

يعني: ما كان بينهم قد صدر عن اجتهاد، فإذا كان صدر عن اجتهاد فهم بين مَن له أجران ومن له أجر واحد، يعني إذا اجتهد وأخطأ فله أجر، وإذا اجتهد وأصاب فله أجران، كما نص على ذلك رسول الله ﷺ[٣].

قوله: «**فاسلم أذل الله من لهم هجر**» هذا دعاء على الذي يهجرهم والذي يُزرِي بهم، وهو خليق بذلك.

وبعدَهمْ فالتابعون أحرى بالفضل ثم تابعوهم طُرًا

وهذا بنصِّ الحديث الذي جاء عن النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[٤].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصحيح أن قَرنَهُ ﷺ الصحابة والثاني التابعون

---

(١) منهاج السنة (٤/٤٤٨).
(٢) فتح الباري (١٣/٣٤).
(٣) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).
(٤) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

والثالث تابعوهم»[١].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**ثم الذين يلونهم**»؛ أي القرن الذي بعدهم، وهم التابعون، «**ثم الذين يلونهم**» وهم أتباع التابعين.

واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضلَ من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين»[٢].

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٨٥).

(٢) فتح الباري (٧/ ٦).

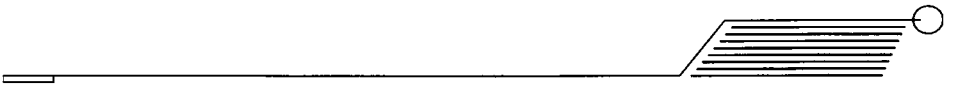

فصل
في ذكر كرامات الأولياء وإثباتها

ثم شرع رَحِمَهُ اللَّهُ في ذكر كرامات الأولياء وأنها ثابتة.

والكرامة: ما يكون خارجًا عن العادة، أمر يكون خارقًا للعادة غير مقرون بالتحدي.

وتكون للإنسان لأمرين :

إمَّا أن تكون لحاجته، وإما أن تكون لإعزاز الدين وإظهاره، كما حصل للصحابة بقيادة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لمَّا حال بينهم وبين الفُرس نهرُ دجلة؛ لأنهم كسروا الجسور، فبقوا أيامًا دون دجلة، والفرس من ورائهم، فخطب سعدٌ المسلمين على شاطئ دجلة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا فيناوشونكم في سُفُنِهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنيَّاتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألَا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعًا: عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل.

فعند ذلك ندب سعدٌ الناسَ إلى العبور. فركبوا خيولهم فساروا، فصارت الخيل كأنها تمشي في الرمال، فصار الفُرس يقولون: مجانين مجانين! فخرجوا عليهم.

وكان هذا من الله ﷻ لإعزاز دينه[١].

ومن ذلك أيضًا: ما حصل لخالد بن الوليد، فقد رُوي أن خالد بن الوليد نزل الحيرة على أمر بني المرازبة، فقالوا له: احذر السم، لا يَسْقِيكَهُ الأعاجمُ، فقال: «ائتوني به»، فأُتي به، فأخذه بيده، ثم اقتحمه، وقال: «باسم الله»، فلم يضرُّه شيئًا[٢].

وهذا مما وقع لكثير من الصحابة وغيرهم، أمَّا الذي يقع للفرد لحاجته، فهذا قليل في الصحابة، ما كانوا يحتاجون إليه، ولا كانوا ينظرون إليه، ولكنه كثير في التابعين، وكذلك أتباعهم، والمقصود أن الكرامات من آيات الرسل، ومعجزات الرسول؛ لأنها تقع لمتابعه[٣]، أما إذا كانت لغير المتابع فهي ليست كرامة بل هي شقاء، وهي من أحوال الشياطين، أو بالحِيَل.

والكرامات لا تزال حتى تصل إلى إحياء الموتى، فقد ذكر ابن كثير رحمه الله أن قومًا أقبلوا من اليمن متطوِّعين في سبيل الله، فنَفَقَ حمار رجل منهم، فأرادوه أن ينطلق معهم فأبى، فقام فتوضأ وصلى، ثم قال: اللهم إني جئت من الدثينة[٤] مجاهدًا في سبيلك وابتغاء مرضاتك، وإني أشهد أنك تُحيي الموتى وتبعث مَن في القبور، فلا تجعل لأحد عليَّ منة، فإني أطلب إليك أن تبعث لي حماري، ثم قام إلى الحمار فضربه فقام الحمار ينفض أذنيه، فأسرجه وألجمه، ثم ركبه وأجراه فلحق بأصحابه، فقالوا له: ما شأنك؟ قال: شأني أن الله بعث حماري.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ١١).
(٢) مسند أبي يعلى (٧١٨٦)، فضائل الصحابة لأحمد (١٤٧٨).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٩/ ٤٨).
(٤) الدثينة: بفتح أوله، وكسر ثانيه، وياء مثناة من تحت، ونون: ناحية بين الجند وعدن. معجم البلدان (٢/ ٤٤٠).

قال الشعبي: فأنا رأيت الحمار بِيع أو يباع في الكناسة. يعني بالكوفة.

فقيل له: تبيع حمارك وقد أحياه الله لك؟! قال: فكيف أصنع؟[١]

المقصود أن هذه حياة بعد موت، وهي كرامة ولكنها آية من آيات الرسول ﷺ معجزة.

أمَّا إذا كان الإنسان يقول: انظروا لي إني عندي كرامات! فهذا ليس من الأولياء، هذا من أولياء الشيطان، وليس كرامةً ما يحدث له، بل هذا من الشياطين ومن حِيَلِهم.

وكل خارق أتى عن صالحِ من تابعٍ لشرعنا وناصح

فإن من وقع له هذا متبعًا للشرع، تقيًّا يخاف الله جلَّ وعلا، يكون كرامة؛ ولهذا يقول العلماء: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفَه عند الأمر والنهي.

وقال الشافعي: لو رأيتم صاحب بدعة يطير في الهواء فلا تغتروا به.

فأولياء الله المتقون هم المتَّبِعون لكتاب الله وسنة رسوله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] وطريقهم طريقُ أنبياء الله المرسلين وأولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين[٢].

وإلَّا فليست كرامة بل هي استدراج وندامة.

فإنها من الكرامات التي بها نقول فاقْفُ للأدلةِ

يعني إذا وقعت الكرامة لصالح متابع للكتاب والسنة وناصح للإسلام والمسلمين فهي كرامة، وإلا يكن كذلك فهي من الحيل وصنيع الشيطان.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٩/ ٤٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٦٦).

ومَن نفاها مِن ذوي الضَّلالِ فقد أتى في ذاك بالمحال

يعني مثل المعتزلة ونحوهم؛ فقد أنكروها، يقولون: لئلا تلتبس بآيات الرسل، ومعجزاتهم، وهذا كلام لا قيمة له.

قال صاحب مرقاة المفاتيح: «الكرامات، جمع كرامة، وهي اسم من الإكرام والتكريم، وهي فعلٌ خارقٌ للعادة غير مقرون بالتحدي، وقد اعترف بها أهل السنة، وأنكرها المعتزلة»[1].

فإنها شهيرةٌ ولم تَزلْ في كل عصرٍ يا شقا أهلِ الزللْ

يعني أنها لم تزل في هذه الأمة ولن تزال هذه الكرامات موجودة، ولكنها لا تكون لمن يدَّعيها؛ لأن الذي يدعيها كأنه يقول: انظروا إليَّ أنا من الأولياء!! ومن كان بهذه الصفة فعلمه لغير الله تعالى.

(١) مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٨٣٥).

فصل
في المفاضلة بين البشر والملائكة

وعندنا تفضيلُ أعيانِ البشر ... على ملاك ربنا كما اشتَهَرْ
قال: ومن قال سوى هذا افترى ... وقد تعدَّى في المقال واجترى

ثم انتقل رَحِمَهُ اللَّهُ للحديث عن: صالح البشر أفضل أم الملائكة؟

وهذه مسألة لا ثمرة فيها، ولا يترتب عليها شيء.

قال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأمر فيه سهل، وليس فيه من الفائدة إلا معرفة الشيء على ما هو به»[١].

قوله: «**وعندنا تفضيل أعيان البشر**» يعني الأتقياء من البشر.

قوله: «**على ملاك ربنا كما اشتهر**» يعني أن صالح البشر أفضل من الملائكة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم: أن صالحي البشر أفضلُ من الملائكة من غير نكير منهم لذلك، ولم يخالف أحد منهم في ذلك، إنما ظهر الخلاف بعد تشتُّتِ الأهواء بأهلها وتفرُّق الآراء، فقد كان ذلك كالمستقر عندهم»[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد كان السلف يحدِّثون الأحاديث المتضمنة فضلَ صالحي البشر على الملائكة وتُروى على رؤوس الناس، ولو كان هذا

---

(١) شعب الإيمان (١٦٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٦٩).

منكرًا لأنكروه، فدلَّ على اعتقادهم ذلك»[١].

قوله: «**ومن قال سوى هذا افترى**» يعني: من قال خلاف ذلك مثل المعتزلة؛ لأنهم قالوا بأن الملائكة أفضل بكثير من صالح البشر، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وذهبت المعتزلة إلى تفضيل الملائكة على البشر»[٢].

واستدلوا بأشياء مثل قول الله جل وعلا في آيات عدة، كما ذكر الزمخشري وغيره[٣]، وكذلك أحاديث الرسول ﷺ؛ فقد جاء في الحديث أن الله يقول: «**وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**»[٤]، يستدلون بهذا على أن الملأ من الملائكة خير من الملأ من البشر.

وهذه المسألة ـ كما قلنا ـ ليس فيها فائدة.

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٧١).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٦).
(٣) انظر: الكشاف (٢/ ٢٥)، تفسير الرازي (١٢/ ٥٣٨).
(٤) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

الباب السادس

في ذكر الإمامة ومتعلقاتها

ولا غنى لأمة الإسلامِ ... في كل عصر كان مِنْ إمامِ
يَذُبُّ عنها كل ذي جحودِ ... ويعتني بالغزو والحدود
وفعلِ معروفٍ وتركِ نُكْرِ ... ونَصرِ مظلومٍ وقمعِ كفرِ
وأخذِ مال الفيءِ والخراج ... ونحوِه والصرفِ في منهاج

ثم شرع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في ذكر الإمامة ومتعلقاتها، وأنه يجب أن ينصب إمام؛ لأن في ذلك مصلحة الدنيا ومصلحة الدين، فيجب على الأمة أن تجعل لها إمامًا تُطيعه وتقاتل معه، وهو يقوم بتنفيذ الحدود وأوامر الله، وإيصال الحقوق إلى أصحابها ومنع الظلم وغير ذلك، فلا غنى للأمة عنه.

قوله: «**ولا غنى لأمة الإسلام**» أي ليس لهم غنى عن الإمام الذي يجعلونه لهم، ويجب أن يطيعوه، وإلَّا فما الفائدة من أن يُجعل الإمام ولا يُطاع أو يُخرج عليه؟! لا فائدة فيه.

قوله: «**ويعتني بالغزو والحدود**» يعني أنه يغزو الكفارَ وكذلك يقيم حدود الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك يأخذ الحق ممَّن امتنع من أدائه، وكذلك منع الظلم، وغير ذلك، فالمصلحةُ في وجوده كبيرة جدًّا، ولا تصلح الأمة إلَّا به.

قوله: «**وفعلِ معروفٍ وتركِ نُكْرِ..**» أي ويعين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتركه، وكذلك نصر المظلوم على ظالمه، وقمع أهل الكفر.

قوله: «**وأخذِ مال الفيءِ والخراج**» يعني: أن يعتني بجمع مال الفيء

من مصادره المعروفة، والخراج الذي يكون في الأرض التي غنمت، ثم يُجعل عليها خراج يعني ممن يزرعها أو غير ذلك، فيكون إليه هو جمع ذلك وقسمه، والنظر فيه.

ونصبُه بالنص والإجماع وقهرِه فَحُلْ عنِ الخداعِ

يعني: يجب أن ينصب إمام بالإجماع؛ قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]: «هذه الآية أصلٌ في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويُطاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة.

ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة»[(١)].

وشرطُه الإسلامُ والحرّيه عدالةٌ سمعٌ مع الدَّرِيَّه

أي أن شرطه أن يكون مسلمًا حرًّا، ولكن هذا الشرط ـ يعني الحرية ـ فيه خلاف، أمَّا كونه مسلمًا فبالإجماع، ولا يجوز أن يكون إمام المسلمين كافرًا، قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا بالشرع؛ فإن وُجد ذلك فبخلاف الشرع»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودَّة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢٦٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٦٤١).

[آل عمران: ٢٨]؛ أي: يحذركم عقوبته في ارتكابكم نَهْيَه»[١].

وقال القاضي عياض: «أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفرُ انعزل»[٢].

قوله: «**عدالةٌ سمعٌ**» يعني يجب أن يكون عدلًا، وله سمع ليس أصم.

وقوله: «**مع الدَّرِيَّة**»: أي يجب أن يكون له درايةٌ وسياسة ومعرفة بالأمور، ويجب أن يعاوَن في ذلك[٣].

وأن يكون من قريشٍ عالما مُكلَّفاً ذا خبرةٍ وحاكما

لقوله ﷺ: «**الناس تبع لقريش**»[٤]، وقوله ﷺ: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي اثنان**»[٥]، وهذا إذا وجد من يصلح، وإذا عُدم من يصلح فيكون من غيرها.

وكن مطيعاً أمرَهُ فيما أمر ما لم يكن بمنكرٍ فيُختَذر

يعني يجب أن يُطاع إذا أمر ما لم يكن يأمر بمنكر، ويأمر بخلاف ما أمر الله، أمَّا إذا أمر بما هو موافق لأمر الله، أو بشيء ليس حرامًا، فإنه يجب أن يطاع.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤١).
(٢) تحفة المحتاج شرح المنهاج (٩/ ٧٥).
(٣) انظر: الأحكام السلطانية (١٩).
(٤) أخرجه البخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨).
(٥) أخرجه البخاري (٣٥٠١)، ومسلم (١٨٢٠).

فصل
في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ثم انتقل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الكلام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد عدَّ هذا بعض العلماء ركنًا من أركان الإسلام، فهو أمر مهم، وهذا يتعلق بالاستطاعة كما في حديث أبي سعيد: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(١).

واعلم بأن الأمرَ والنَّهي معا فرضا كفايةٍ على مَنْ قد وعى

«**وعى**»: يعني عَلِمَ، أي: علم وعرف الحق والنصوص التي دلَّت على ذلك.

أي اعلم أيها المسلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضا كفاية على كل من علم ذلك من المسلمين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأمر بالمعروف وهو الحق الذي بعث الله به رسوله، والنهي عن المنكر وهو ما خالف ذلك من أنواع البدع والفجور، بل هو من أعظم الواجبات وأفضل الطاعات، بل هو طريق أئمة الدين ومشايخ الدين نقتدي بهم فيه، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وهذه الآية بها استدل المستدلون على أن شيوخ الدين يُقتدى بهم في الدين، فمن لم يأمر بالمعروف وينْهَ عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين ولا ممن يُقتدى به»[١].

وان يكن ذا واحداً تَعَيَّنا عليه لكن شرطُهُ أنْ يأمنا

يعني إذا كان الأمر لا يتعين على واحد، فإنه يجب عليه أن يُنكر المنكر لكن بشرط أن يأمن على نفسه ألَّا يُضرب أو يؤخذ ماله، أو يسجن، أو يحبس[٢]، كمن رأى المنكر وحده فإنه يتعين عليه إنكاره بشرطه.

فاصبر وزلْ باليد واللسانِ لمنكرٍ واحذز من النقصانِ

يعني أن إنكار المنكر درجات: باليد، ثم باللسان، ثم آخر درجة يكون بالقلب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنكار المنكر أربع درجات؛ الأولى: أن يزول ويخلفه ضدُّه، الثانية: أن يقلَّ وإن لم يَزُلْ بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثلُه، الرابعة: أن يخلفه ما هو شرٌّ منه؛ فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرَّمة»[٣].

ومن نهى عما له قد ارتكبْ فقد أتى بما به يُقضى العجبْ

يعني: أن من ينهى عن أمر هو يفعله، لا يُقبل منه، فلا بد أن يكون الآمر هو أول من يمتثل وأول من يبتعد عن ذلك؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال بعض السلف: إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهي، فإذا أمرتَ بشيء فكن أولَ الفاعلِين له، المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥١٠).
(٢) انظر: الموسوعة الفقهية (٣٩/ ١٢٣).
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ١٢).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٤٥).

قال الله تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيم[1]

فلو بدا بنفسه فَذَادَهَا عن غَيِّهَا لكان قد أفادَهَا

يعني: كيف تنكر المنكر وأنت تفعله؟! فابدأ بنفسك أولًا حتى يُستفاد من أمرك، ويُمتثل لذلك ويُنتفع به.

(١) البيت من الكامل، وهو لأبي الأسود في ديوانه (ص٤٠٤).

الخاتمة
نسأل الله حُسن الخاتمة

ثم انتقل رَحِمَهُ اللَّهُ إلى خاتمة هذا النظم ـ نسأل الله حسن الخاتمة في الأعمال والأمور ـ.

والخاتم: الذي يختم على الشيء.

فإذا كُتب الكتاب خُتم، وكذلك الشيء الثمين يُختَم عليه، وهذه ثمينة فجُعل لها خاتمة، وقد وعد الناظم بذلك، وأنها تكون مقدمة وستة أبواب وخاتمة.

مـدارِكُ الـعـلـوم فـي الـعـيـانِ مـحـصـورةٌ فـي الـحـد والـبـرهـان

«**الحد**» هو الفصل بين الشيئين لئلَّا يختلط أحدهما بالآخر، أو لئلا يتعدَّى أحدهما على الآخر، وجمعه حدود.

وفصلُ ما بين كل شيئين: حدٌّ بينهما[١]، وهو أيضًا المنع[٢]، ومنه سمي التعريف حدًّا لمنعه الداخلَ فيه من الخروج عنه، والخارجَ عنه من الدخول فيه؛ مثل: حد العبادة، حد التفسير.. حد كذا، فيجب أن يكون محصورًا في هذا.

وكذلك «**البرهان**» يعني بالدليل، هذا أمر مهم، أولًا تبدأ بالتعريف الذي هو الحد، ثم بالدليل الذي يُقام على ذلك.

---

(١) لسان العرب (٣/ ١٤٠).

(٢) التعريفات (ص٨٣).

وقال قوم عند أصحاب النظر حسٌّ وإخبارٌ صحيحٌ والنظر

يعني: أن هذا أيضًا لا بد منه؛ أن يكون الإنسان عنده فكر وإدراك ومعرفة، وأن يكون نظره صحيحًا، والنظر المقصود النظر العقلي.

الحد وهو أصلُ كلّ علم وصفٌ محيطٌ كاشفٌ فافْتَهِم

يعني أن هذا هو تعريف الحد، وقوله: «**أصل كل علم**» فمن لا يحيط به علمًا لا ينتفع به.

قال الراغب: «الحد: الوصف المحيط بمعناه المميز له عن غيره»[(١)].

وقال الغزالي: «حد الشيء حقيقته وذاته»[(٢)].

وشرطُه طردٌ وعكسٌ وهو إن أنبا عن الذوات فالتَّامَ اسْتَبِنْ

يعني: أن شرطه أن يكون مطردًا منعكسًا، وهذا محلُّه أيضًا في الأصول؛ أنهم يذكرون هذا ويبيِّنون ذلك وهو مطرد في جميع العلوم، فيجب أن يكون الحد بهذه الطريقة مطردًا ومنعكسًا، أمَّا إذا كان لا يطرد فليس بحد، وإنما هو تقريبي.

وإن يكن بالجنس ثم الخاصّه فذاك رسمٌ فافهم المحاصَّه

«**الجنس**» هو الذي يكون شائعًا في نوعه؛ مثل: رجل، شجرة، بقرة، فهذا يسمى الجنس، ثم يليه النوع الذي يكون أقل منه[(٣)].

و«**المُحَاصَّة**» من تَحاصَّ القومُ تَحاصًّا؛ أي: اقتَسَموا حِصَصَهم[(٤)].

والحد قسمان: تامٌّ وناقص:

فالحد التام: ما يتركب من الجنس والفصل القريبين؛ كتعريف الإنسان بالحيوان الناطق.

---

(١) المفردات (ص٢٢١).
(٢) المستصفى (ص١٨).
(٣) تاج العروس (١٥/ ٥١٥).
(٤) لسان العرب (٧/ ١٤).

والحد الناقص: ما يكون بالفصل القريب وحدَه، أو به وبالجنس البعيد، كتعريف الإنسان بالناطق، أو بالجسم الناطق[١].

فقوله: «**فافهم المحاصة**» أي افهم ما بين الحد التام والحد الناقص.

وكل معلوم بحس وحجا فنُكْرُه جهلٌ قبيحٌ في الهِجا

«**الحِسُّ**» كل ما يُدرك بالحواس الخمسة[٢].

و«**الحجا**» يعني العقل والفطنة[٣].

فالعلوم المحسوسة هذه أمور ضرورية لا أحد يُنكرها، أمَّا الحجا الذي هو العقل فقد يكون مختلفًا.

«**فنُكرُه جهل قبيح في الهجا**» يعني الجهل قبيح في كل شيء، وكون الإنسان يجهل العلوم الضرورية ويجهل الحدود ويجهل الأشياء، فهذا نقص كبير ولا يصلح.

فإن يَقمْ بنفسه فجوهرُ أو لا فذاكَ عَرَضٌ مُفتَقِرُ

أمَّا هذا فلا نحتاج إليه؛ لأن هذه الأشياء كلها لا تخرج عن ذلك، قوله: «**إن يقم بنفسه**» يعني الشيء الذي تشاهده أو يشغل مكانًا يكون مجسدًا، فهذا يسمى جوهرًا، فكل شيء تشاهده جوهر، مثل: الجدار، والحصى، والماء، والشجر وغيرها.

وإن لم يكن كذلك، يعني لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بغيره، فهو عرض؛ مثل: الألوان الحمراء أو الصفراء، والعلم، والجهل، والمرض والصحة، وغير ذلك، هذا يسمى عرض وهذا اصطلاح المتكلمين، وإلَّا فلا تجد هذا في علوم المسلمين سابقًا.

---

(١) التعريفات (ص٨٣).

(٢) انظر: التعريفات (٨٦).

(٣) لسان العرب (١٤/ ١٦٥).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالسلف والأئمة لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولَّدة كلفظ الجوهر والعرض والجسم وغير ذلك؛ بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه؛ لاشتمال هذه الألفاظ على معاني مجملة في النفي والإثبات، كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع، فقال: هم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويُلَبِّسون على جُهَّال الناس بما يتكلمون به من المتشابه»[١].

والجسم ما أُلِّفَ من جزأينِ فصاعداً فاترك حديث المينِ

يعني: هذا تعريف الجسم ما أُلِّف من شيئين، وهذا تعريف أيضًا ليس متفق عليه، فمنهم من يقول: الجسم ما صحت الإشارة إليه، ومنهم من يقول الجسم البدن وهذا هو الصحيح، أمَّا كونه مؤلَّف من شيئين لا شك أن جسم الإنسان من شيء فأكثر فهو عظم ولحم ودم وغير ذلك، فهو من شيء فأكثر، فهذه تسمى جسم[٢]، ولكن ما الفائدة في هذا؟ يعني أن هذا من الحدود التي لا بد أن نعرفها!

ومستحيل الذات غير ممكنِ وضدُّه ما جاز فاسمع زَكَني

«**الزَّكَن**» التفرُّس والظن، وأزكنته الشيء: أعلمتُه إيَّاه وأفهمته[٣]، أي: أن المستحيل الذي لا يمكن مثل كون الإنسان يكون حيًّا ميتًا، نائمًا يقظان، قائمًا جالسًا؛ هذا مستحيل لا يمكن.

«**وضده**» يعني ضد المستحيل «**ما جاز**» أي الجائز، الذي يمكن أن يقع وأن لا يقع.

---

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ١٣٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠٧).
(٣) لسان العرب (١٣/ ١٩٨).

والضدُّ والخلافُ والنقيضْ والمثلُ والغيرانِ مُستفيضْ

«**الضد**» يعني: ضد الشيء، مثلًا ضد العلم الجهل، وضد الأكل عدمه، فالضد هو خلاف الشيء.

«**النقيض**»: المقابل، مثل: الشرك والتوحيد، فالتوحيد نقيضه الشرك.

فالفرق بين الضد والنقيض: أن النقيضان: ما كان التقابل بينهما تقابلَ النفي والإثبات أو العدم، ولذا لا يمكن اجتماعهما في مادة، ولا ارتفاعهما كالحركة والسكون.

وأمَّا المتضادان: فيجوز ارتفاعهما ويمتنع اجتماعهما، كالسواد والبياض[1].

«**والمثل والغيران مستفيض**» المثلان: ما قام أحدهما مقام الآخر، والغيران هما المختلفان. مستفيض استفاضة ظاهرة.

وكل هذا علمه محققْ فلم نُطِلْ به ولم نُنَمّقْ

أي وكل هذا الذي ذكره وغيره مما لم يذكر، فمعلوم، ولم يُطِلِ الكلام فيه ولم يزينه، ثم انتهى من هذا.

والحمد لله على التوفيقِ لِمنهجِ الحق على التحقيق

يعني: الحمد لله على أن وفقنا لمنهج الحق الواضح، وأوضحنا هذه العقيدة وجئنا بهذه الخاتمة، وهذا كلُّه من توفيق الله جلَّ وعلا حيث يسَّر نَظْمَه.

مُسَلِّماً لمُقْتَضى الحديثِ والنصِّ في القديم والحديثِ

يعني أننا متَّبعين للأثر في هذا النظم، لما يقتضيه النص القرآني والثابت من السنة النبوية، وهذا من توفيق الله جلَّ وعلا.

---

(١) انظر: الفروق اللغوية للعسكري (ص٣٢٦).

لا أعتني بغيرِ قولِ السلفِ موافقاً أئمتي وسلفي

يعني: إنني اتبعت قول السلف في هذا، واعتنيت به، ولا أقول بغير قولهم.

ولستُ في قوليَ ذا مقلِّدا إلا النبيَّ المصطفى مُبدِي الهدى

يعني: لمَّا قلت هذه الأقوال من أولها إلى آخرها، لم أكن مقلِّدًا؛ لأن هذه عقيدة، والعقيدة لا تقليدَ فيها، وإنَّما أنا مُتَّبِعٌ للنبي المصطفى ﷺ ومقلِّدٌ له؛ ولهذا قال: «**إلا النبي المصطفى مبدي الهدى**» يعني أنه يقلد المصطفى ﷺ ويتبعه.

صلى عليه الله ما قَطْرٌ نزلْ وما تعانى ذِكرُه من الأزلْ

يعني: صلاة الله عليه وسلامه دائمًا أبدًا، والصلاة من الله جلَّ وعلا هي ذكره والثناء عليه في الملأ الأعلى، ومن عباد الله الدعاء، ومن الملائكة كذلك.

وما انجلى بهديه الديجورُ وراقتِ الأوقاتَ والدهورُ

«**الديجور**» الظلام[1]؛ يعني أنه جاء بالعلم والنور الذي أزال الظلام، فنُصلِّي عليه كلَّما انتشر نورُه وذهبت الظُّلَم، ظلم الشرك والجهل.

وآله وصحبه أهلِ الوفا معادنِ التقوى وينبوع الصفا

يعني: نصلي عليه وعلى آله وأصحابه، وآله هم الذين حرمت عليهم الصدقة والزكاة.

وقيل: هم أتباعُه على دينه، وبعض العلماء يختار هذا، أمَّا الصحبُ: فسبق أن كلَّ من رآه مؤمنًا به ولو لحظة فهو من أصحابه، ويختلفون في كثرة الصحبة وقلَّتها.

---

(١) القاموس المحيط (١/ ٣٩١).

وتابعٍ وتابعٍ للتابعِ خيرِ الورى حقاً بنصِّ الشارعِ

أي وصلى الله على التابعين وتابعي التابعين، وقوله: «**بنص الشارع**» يعني حديث سعد بن أبي وقاص وغيره، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» يقول: فلا أدري ذكر بعد قرنه اثنين أو ثلاثة[1].

ورحمةُ الله معَ الرضوانِ والبرُّ والتكريم والإحسانِ
تُهدى مع التبجيلِ والإنعامِ مني لمثوى عصمة الإسلامِ
أئمةِ الدين هداةِ الأمةِ أهل التقى مِنْ سائرِ الأئمةِ

يعني هذا دعاء للأئمة الذين عُرف أثرُهم في الأمة وفي الإسلام مثل الأئمة الأربعة وغيرهم.

لا سيما أحمدَ والنعمانِ ومالكٍ محمدِ الصنوانِ

أي ويخص من أئمة الدين الأئمةَ الأربعة: أحمد بن حنبل، و«**النعمان**» يعني أبا حنيفة، ومالك بن أنس رضي الله عنه، و«**محمد**» يعني الشافعي.

مَنْ لازِمٌ لكل أربابِ العملْ تقليدُ حبرٍ منهم فاسمعْ تَخَلْ

يعني أن هؤلاء هم الأحبار الذين صارت لهم الآثار، ولهم الأتباع الذين اتبعوهم، وكذلك لهم المؤلفات التي صارت نبراسًا لغيرهم، فيلزم كلَّ مكلَّف ممَّن ليس في أهلية الاجتهاد المطلق تقليدُ حبرٍ منهم.

ومَنْ نحا لِسَبْلِهِمْ مِنَ الورى ما دارتِ الأفلاكُ أو نجمٌ سرى

يعني: أنه أيضًا كذلك يدخل في دعائه مَن سار على نهجهم.

---

(١) تقدم تخريجه (ص....).

هـديـةٌ مِـنَـي لأربـابِ الـسـلـفْ مجانباً للخوض مِنْ أهلِ الخلفْ
خُـذها هُـديـتَ واقـتـفـي نـظـامـي تَـفُـزْ بـمـا أمَّـلْـتَ والـسَّـلامِ

أي هذه هدية مني لمن سار على ما كان عليه السلف والتزم عقيدتهم ولم يَخُضْ فيما خاض فيه الخلف من أهل البدع.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبيِّنا محمد.

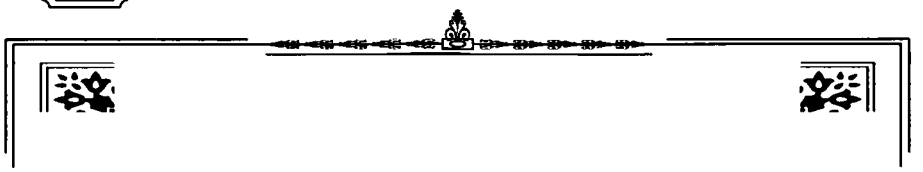

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
نظم الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية	٧
مقدمة الشارح	٢٠
التعليق على الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية	٢٦
مقدمة: في ترجيح مذهب السلف على غيره من سائر المذاهب	٤٧
قول أهل السنة في النصوص	٥٤
الباب الأول: في معرفة الله تعالى وما يتعلق بذلك من تعداد الصفات	٦٤
فصل في مبحث القرآن	٧٥
فصل في ذكر الصفات التي يثبتها لله تعالى أئمة السلف	٨١
فصل في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلد في العقائد	٩٢
الباب الثاني: في الأفعال المخلوقة	٩٣
فصل في الكلام على الرزق	١١٤
الباب الثالث: في الأحكام والكلام على الإيمان ومتعلقات ذلك	١١٧
فصل في الكلام على القضاء والقدر غير ما تقدم	١٢٠
فصل في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها	١٢٤
فصل في ذكر من قيل بعدم قبول إسلامه من طوائف أهل العناد	١٣٤
فصل في الكلام على الإيمان واختلاف الناس فيه	١٣٩
الباب الرابع: في ذكر بعض السمعيات	١٤١
فصل في ذكر الروح والكلام عليها	١٤١
فصل في أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ومجيئها	١٤٢

الموضوع	الصفحة

فصل في أمر المعاد ١٤٤
فصل في الكلام على الجنة والنار ١٤٦
الباب الخامس: في ذكر النبوة وذكر محمد ﷺ وبعض الأنبياء ١٥٠
فصل في بعض خصائص النبي ﷺ ١٥٥
فصل في التنبيه على بعض معجزاته ﷺ ١٥٨
فصل في ذكر فضيلة نبينا وأولي العزم وغيرهم من النبيين والمرسلين ... ١٦١
فصل فيما يجب للأنبياء عليهم السلام وما يجوز عليهم، وما يستحيل في حقهم . ١٦٣
فصل في ذكر الصحابة الكرام رضي الله عنهم ١٦٦
فصل في ذكر الصحابة الكرام بطريق الإجمال ١٧٧
فصل في ذكر كرامات الأولياء وإثباتها ١٨٢
فصل في المفاضلة بين البشر والملائكة ١٨٦
الباب السادس: في ذكر الإمامة ومتعلقاتها ١٨٨
فصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٩١
الخاتمة ١٩٤
الفهرس ٢٠٣